

تَفْسِيرُ الْمَرْاعِي

تأليف

صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير

أحمد مصطفى المرافي
أستاذ الشريعة الإسلامية واللغة العربية
بكلية دارالعلوم سابقاً

الجزء الحادي عشر

الطبعة الأولى

١٣٦٥ هـ - ١٩٤٦ م

حقوق الطبع محفوظة

الجزء الحادى عشر

يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ، قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ تُؤْمِنَ
لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسِيرَى اللَّهِ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ
تُردُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٤)
سَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ
لَهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٥) يَخْلِفُونَ
لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ ، فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ
الْفَاسِقِينَ (٩٦)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

شرح المفردات

الغيب : ما غاب عنك علمه ، والشهادة : ما تشهد به وتعرفه ، الانقلاب : الرجوع ،
رجس : أى قدر يجب الإعراض عنه .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر عزَّ اسمه من يستحقون اللوم والمؤاخذة من المذنبين ، ومن لاسبيل إلى مؤاخذتهم وعدم الحرج عليهم - ذكر في هذه الآيات ماسيكون من أمر المنافقين الذين تخلفوا في المدينة وما حولها عن غزوة تبوك مع الرسول صلى الله عليه وسلم بعد عودتهم .

الإيضاح

(يعتذرون إليكم إذا رجعت إليهم) أى سيعتذر إليكم أيها المؤمنون أولئك الذين رضوا بأن يكونوا مع الخوالف ، وهم أغنياء أصحاب لا عذر لهم عن التخلف عن الغزو وغيره من سيئاتهم عند رجوعكم من السفر .

(قل لا تعتذروا إن نؤمن لكم) أى قل لهم أيها الرسول لا تعتذروا إننا لن نصدقكم في معاذيركم أبدا وإن نظمتم إليكم . ثم بين السبب في عدم تصديقهم فقال :

(قد نبأنا الله من أخباركم) أى قد أنبأنا الله بوجبه إلى رسوله بعض أخباركم التى تسرونها في ضمائركم وهى مخالفة لظواهركم التى تعتذرون بها ، ونبأ الله هو الحق الذى لا شك فيه ، ومن عرف الحق لا يقبل الباطل ولا يصدق الكاذب .

وإنما قال نبأنا ولم يقل نبأنى إيماء إلى أنه أمره أن ينبئ بذلك أصحابه ولم يكن هذا النبأ خاصا به ، كما أن اعتذارهم للجميع يقتضى أن يكونوا كلهم عالمين بما فضحهم الله به ، وفى هذا من التشهير بهم والخزى لهم ما لا يخفى فيه .

(وسيرى الله عملكم ورسوله) أى وسيرى الله عملكم ورسوله فيما بعد ، وهو الذى سيدل إما على إصراركم على النفاق أو على التوبة والإجابة إلى ربكم ، وأما أقوالكم فلا يعتد بها منها وكذبتموها بالآيمان ، فإن أتمت بتم وأنتم إلى ربكم وشهد لكم عملكم بصلاح طوبيتكم ، فإن الله يتقبل منكم توبتكم ، ويغفر لكم حوبتكم ، ويعاسلكم

الرسول بما يعامل به المؤمنين الذين أخلصوا وصدقوا وشهدت لهم أعمالهم بذلك ، وإن أنتم أيتم إلا الإصرار على النفاق وإلا الاعتماد على رواج سوق الكذب بتلك الأيمان التي تحلفونها فسيعاملكم الرسول بما أمره الله به من جهادكم والإغلاظ عليكم كأخوانكم الكفار المجاهرين .

وفي هذا إيماء إلى الرغبة في توبتهم حين سنوح الفرصة .

(ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون) أي ثم تردون يوم القيامة إلى عالم الغيب والشهادة الذي يعلم ما تكتُمون وما تظهرون ، فينبئكم حينئذ بما كنتم تعملون ويخازيكم عليه بما تستحقون وهو ما أوعدكم به في كتابه الكريم في هذه السورة وفي غيرها « إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ » .

وفي الآية إيماء إلى أنه ينبغي تحامي كل ما يعتذر منه من ذنب أو تقصير، وقد ورد في الحديث « إياك وما يعتذر منه » .
ثم أكد ماسبق من نفاقهم بقوله :

(سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم) أي سيؤكّدون لكم اعتذارهم بما يحلفون به من كاذب الأيمان إذا انقلبتم من سقركم ورجعتم إليهم لتعرضوا عن العتب عليهم والتوبيخ على قعودهم مع الخالفين من العجرة والنساء والأطفال وعلى البخل بالنفقة والمال .
(فأعرضوا عنهم) أي فأعرضوا عنهم إعراض الإهانة والتحقير ، لا إعراض الصّحّ وقبول العذر . روى مقاتل أن النبي صلى الله عليه وسلم قال حين قدم المدينة « لا تجالسوهم ولا تكلموهم » .

ثم علل هذا بقوله :

(إنهم رجس) أي إن في هوسهم قدرا معنويا يجب الاحتراس منه خوف سريان عدواه ، وميل النفوس إليه كما يحقرز صاحب الثوب النظيف من الأقدار الحسية التي ربما تهييه إذا لم يحتط لها .

(وماؤام جهنم جزء بما كانوا يكسبون) أى وملجؤهم الأخير نار جهنم جزء لهم بما كسبوا فى الدنيا من أعمال النفاق وغيرها مما دلس نفوسهم ، وزادهم رجسا على رجسهم .
ثم زاد فى تأكيد نفاقهم فقال :

(يخلقون لكم لترضوا عنهم) أى يخلقون لكم لتستديموا معاملتهم بظاهر إسلامهم ، وهذا أهم الأغراض لديهم فلا حظ لهم من إظهار الإسلام سواء ، ولو كان إسلامهم عن يقين واعتقاد لكان غرضهم الأول إرضاء الله ورسوله .
(فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين) أى فإن ترضوا عنهم كما أرادوا ، وساعدتموهم على ما طلبوا فإن رضاكم عنهم لا يجديهم نفعا ، فإن الله ساقط عليهم بسبب فسوقهم وخروجهم عن أمره ونهيه .

وفى هذا إيماء إلى نهى المخاطبين عن الرضا عنهم والاعتراض بمحاذيرهم الكاذبة وأن من يرضى عنهم من المؤمنين يكون فاسقا مثلهم محروما من رضوان الله ، وأن من يتوب منهم ويرضى الله ورسوله يخرج من حدود سخطه ويدخل فى حظيرة مرضاته ولا يعد حينئذ فاسقا .

روى عن ابن عباس أن هذه الآيات نزلت فى الجدي بن قيس ومعتب بن قيس وأصحابها من المنافقين وكانوا ثمانين رجلا ، أمر النبي صلى الله عليه وسلم المؤمنين لما رجعوا إلى المدينة ألا يجالسوهم ولا يكلموهم . وقال قتادة : إنها نزلت فى عبد الله ابن أبى فإنه حلف للنبي صلى الله عليه وسلم بعد عودته ألا يتخلف عنه أبدا وطلب أن يرضى عنه فلم يفعل .

الأغراب أشد كُفرا ونفاقا وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله ، والله عليم حكيم (٩٧) ومن الأغراب من يتخذ ما ينفق مغرما ويتربص بكم الدوائر ، عليهم دائرة السوء ، والله

سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٩٨) وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَتَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ، أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٩٩)

شرح المفردات

الأعراب : اسم لبدو العرب ، واحده أعرابي والأشئ أعرابية ، والعرب اسم لهذا الجيل الذى ينطق بهذه اللغة بدوه وخضره : واحده عربى ، والمغرب : الغرامة والخسران ، من الغرام بمعنى الهلاك ، والدائرة : ما يحيط بالشئ والمراد بها ما لا يحصى منه من تضاريف الأيام ونوائبها التى تحيط بشرونها بالناس ، والدائرة أيضا : الثابتة والمصيبة ، والسوء : اسم لما يسوء ويضر ، والقربات : واحدها قربة ، وهى فى المنزل والمكانة كالقرب فى المكان والقراءة فى الرحم ، والصلوات : واحدها صلاة ، ويراد بها الدعاء .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أحوال العرب مؤمنهم ومناققيهم ، بين فى هذه الآيات الثلاث أحوال الأعراب مؤمنهم ومناققيهم كذلك .

الإيضاح

(الأعراب أشد كفرا ونفاقا وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله) أى إن طبيعة البدو اقتضت أمرين :

(١) إن كفارهم ومناققيهم أشد كفرا ونفاقا من أمثالهم من أهل الحضرة ، ولا سيما من يقيم منهم فى المدينة ، فهم أغلظ طعنا وأقسى قلوبا لأنهم يقضون سجل أعمالهم فى رعى الأنعام وحملتها من ضواري الوجوش - الهدأنهم محرومون من العلوم الكسبية والآداب الاجتماعية .

(٢) إنهم أحقر وأحرى من أهل الحضرة ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على

سجل
لعمل حسن
(ولا سيما أهل
منهم) دله
أحمد

رسوله من الهدى والبيئات فى كتابه وما آتاه من الحكمة التى بين بها تلك الحدود تارة بالقول وأخرى بالفعل .

وكان صحابته فى المدينة وما حولها يتلقون عنه الكتاب حين نزوله ويشهدون سنته فى العمل به ، ويرسل عماله إلى البلاد التى افتتحت يبلغون الناس القرآن ويحكمون به وبسنة رسوله الميمنة له . وكل هذا لم يكن مستطاعا لأهل البوادر ، ومن ثم كان الجهل فيهم أكثر لحال المعيشة البدوية .

روى أبو داود والبيهقى عن أبى هريرة مرفوعا « من بدا جفا ، ومن اتبع الصيد غفل ، ومن أتى أبواب السلطان افتتن ، وما ازداد أحد من سلاطنه قربا ، إلا ازداد من الله بُعدا » ذلك أن السلاطين قلما يرضون عن يصارحهم القول ويؤثرهم بالنصح ولا يزداد قربا منهم إلا المرءون الذين يعينونهم على الظلم ويثنون عليهم بالباطل . (والله عليم حكيم) أى واسع العلم يثنون عبادته وأحوالهم من إيمان وكفر وإخلاص ونفاق ، تأم الحكمة فيما شرعه لهم ، وفى جزائهم من نعيم ومقيم ، أو عذاب أليم .

(ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرما) أى ومن الأعراب ناس كانوا ينفقون أموالهم فى الجهاد رياء وتقية ، ويعدون ذلك من المغارم التى يجب على المرء أدائها طوعا أو كرها لدفع المكروه عن أنفسهم أو عن قومهم ولا منفعة لهم فيها لا فى الدنيا وهو واضح ولا فى الآخرة لأنهم لا يؤمنون بالبعث ، قال الضحاك : هم بنو أسد وعطفان . (ويتربص بكم الدوائر) أى ينتظرون أن تحل بكم نوائب الزمان وأحداثه التى تدور بالناس وتحيط بهم ، فتبدل قوتكم ضعفا وانتصاركم هزيمة ، فيستريحوا من أداء هذه المغارم لكم ، إذ يستعنون عن إظهار الإسلام نفاقا ، وقد كانوا يتوقعون ظهور المشركين واليهود على المؤمنين ، فلما أعيتهم الخيل صاروا ينتظرون موت النبى صلى الله عليه وسلم ظنا منهم أن الإسلام يموت بموته .

(عليهم دائرة السوء) هذا دعاء عليهم بنحو ما يترى بصون به المؤمنين ، أى عليهم

وخدم الدائرة السوء تحيط بهم دون المؤمنين الذين يتربصونها بهم، وليس للمؤمنين عاقبة إلا ما يسرهم من نصر الله وتوفيقه لهم ، وما يسوء أعداءهم من خذلان وخيبة وتعذيب لهم في الدنيا قبل الآخرة .

(والله سميع عليم) أى والله سميع لما يقولونه مما يعبر عن شعورهم واعتقادهم في نفقاتهم إذا تجدوا بذلك فيما بينهم ، عليم بما يضررونه من سرائهم التي يخفونها ، وهو سبحانه سيحاسبهم على ما يسمع ويعلم من قول أو فعل وسيجزئهم به .

وبعد أن بين حال المنافقين من الأعراب - ذكر حال المؤمنين الصادقين منهم فقال :

(ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر) أى ومن الأعراب من يؤمن بالله ويثبت له القدرة وكمال التصرف في الكون ، واليوم الآخر الذى تجازى فيه كل نفس بما كسبت ، قال مجاهد : هم بنو مقرر من مزيته ، وهم الذين قال الله فيهم « وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ » .

(ويتخذ ما ينفع قريبات عند الله وصلوات الرسول) أى يتخذ ما ينفعه وسيلة لأمرين :

(١) القربات والزلفى عند الله تعالى جده .

(٢) صلوات الرسول أى أدعيته ، إذ كان النبي صلى الله عليه وسلم يدعو

للمتصدقين ويستغفر لهم ، ولم يحج في نصوص الدين انتفاع أحد بعمل غيره إلا الدعاء وما يكون المرء سببا فيه كالولد الصالح والسنة الحسنة يتبع فيها .

وسميت الصلوات الشرعية بهذا الاسم من قيل أن الدعاء (وهو المعنى اللغوى لها) هو روحها ومحها وسرها الذى به تتحقق العبودية على أتم وجوها .

وقد بين الله جزاءهم على ما انطوت عليه نفوسهم من صدق الإيمان وإخلاص

النية في الإنفاق في سبيل الله فأخبر بقبول نفقتهم وإثابتهم عليها فقال :

(ألا إنها قربة لهم) أى ألا إن تلك النفقة التي اتخذت قد تقبلها الله وأثابت عليها

بما وعده في قوله .

(سيدخلهم الله فى رحمته) أى سيرحمهم الله برحمته الخاصة بمن رضى عنهم ،
وهى هدايتهم إلى الصراط المستقيم الذى يوصلهم إلى جنات النعيم ، والمراد بإدخالهم
فى الرحمة أن تكون محيطة بهم شاملة لهم وهم مغمورون فيها ، وهذا أبلغ فى إثباتها
لهم من مثل قوله : « يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ » .
(إن الله غفور رحيم) أى إنه واسع المغفرة والرحمة لمن يخلصون فى أعمالهم ، فهو
يغفر لهم ما فرط منهم من ذنب أو تقصير ، ويرحمهم بهدايتهم إلى خير العمل
وحسن التصير .

وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ
بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٠٠) وَمَنْ حَوْلَكُمْ مِنَ
الْأَعْرَابِ مُتَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُّوا عَلَى النَّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ
نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ (١٠١) وَآخَرُونَ
اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ
إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٠٢)

شرح المفردات

رضى الله عنهم : أى قبل طاعتهم ، ورضوا عنه : أى بما أسع عليهم من النعم
الدنيوية والدينية ، ومردوا : أى مروا وخذقوا .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر عز اسمه فضائل الأعراب الذين يتخذون ما ينفقون قربات ، ففى
على ذلك بذكر منازل أعلى من منازلهم ، وهى منازل السابقين من المهاجرين والأنصار

ثم ذكر بعدهم حال طائفة من المنافقين هى شر الجميع مرت على النفاق وحذقت فنونه وحال طائفة أخرى بين المنزلتين خلطت سيء العمل بأحسنه ، وهؤلاء يرجى لهم التوبة والغفران من ربهم .

الإيضاح

(والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان) ذكر الله فى هذه الآية ثلاث طبقات من الأمة هى خيرها :

(١) السابقون الأولون من المهاجرين ، وهم الذين هاجروا قبل صلح الحديبية ، وقد كان المشركون يضطهدون المؤمنين ويقاتلونهم فى دار الهجرة وما حولها ولا يمكنون أحدا من الهجرة متى كان ذلك فى طاقتهم ، ولا منجاة للمؤمنين من شرهم إلا بالفرار أو الجوار ، فالذين هاجروا فى ذلك الحين كانوا من المؤمنين الصادقين ، وأفضل هؤلاء الخلفاء الأربعة ثم العشرة الذين بشرهم النبي صلى الله عليه وسلم بالجنة .

(٢) السابقون الأولون من الأنصار ، وهم الذين بايعوا النبي صلى الله عليه وسلم عند العقبة فى منى فى المرة الأولى سنة إحدى عشرة من البعثة ، وكانوا سبعة ، وفى المرة الثانية ، وكانوا سبعين رجلا وامرأتين .

(٣) الذين اتبعوا هؤلاء السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار فى الهجرة والنصرة حلال كونهم محسنين فى أفعالهم وأقوالهم ، فإذا اتبعوهم فى ظاهر الإسلام كانوا منافقين مسيئين غير محسنين فى هذا الاتباع ، وإذا اتبعوهم محسنين فى بعض أعمالهم ومسيئين فى بعض كانوا مذنبين .

(رضى الله عنهم ورضوا عنه) أى هؤلاء جميعا رضى الله عنهم فى إيمانهم وإسلامهم ، قبل طاعتهم وتجاوز عن ذلالتهم ، وبهم أعز الإسلام وتكمل بأعدائه من المشركين وأهل الكتاب ، ورضوا عنه بما أسبغ عليهم من تمة الدينية والدنيوية بأنقذهم من الشرك وهداهم من الضلال وأعزهم بعد الفشل وأعانهم بعد الفقر .

(وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم) هذا الوعد الكريم تقدم فى آيات سابقة فى هذه السورة وغيرها ، ولا شك أن نعيم الجنة الخالدين روحاني وبدني فوز أيما فوز .

والخلاصة — إن هذه الطبقات الثلاث قد استبق أفرادها الصراط ، وشهد لهم ربهم بالمغفرة والتجاوز عن كل ذنب ، وما عاد يؤثر فى كمال إيمانهم شيء ، لأن نورهم يمحو كل ظلمة تطرأ على أحد منهم بالمامه بذنوب .
وبعد أن بين كمال إيمان تلك الطبقات الثلاث ورضاه عنهم — بين حال منافقي أهل المدينة ومن حولها فقال :-

(ومن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق) أى إن بعض الأعراب الذين حولكم منافقون .

قال البغوى والواحدى : هم من قبائل جهينة ومزينة وأشجع وأسلم وغفار ، وكانت منازلهم حول المدينة ، وذلك لا يمنع أن يكون فيهم مؤمنون صادقون دعا لهم النبي صلى الله عليه وسلم ومدحهم ، فقد روى الشيخان عن أبى هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « قريش والأنصار وجهينة ومزينة وأشجع وغفار موالى الله تعالى ورسوله لا موالى لهم غيره » ، وعنه أيضا أنه صلى الله عليه وسلم قال : « أسلم سالمها الله ، وغفار غفر الله لها ، أما إني لم أقلها ، لكن قالها الله تعالى »

وكذلك من أهل المدينة نفسها ناس منافقون من الأوس والخزرج سوى من أخلص الله رسوله بهم فى هذه السورتين بما صدق منهم من أقوال وأفعال تنافى الإيمان . . . هؤلاء وهؤلاء مروا على النفاق وحذقوه حتى بلغوا الغاية فى إتقانه ، فلا يشعر أحد به إذ هم يتقون جميع الأمارات والشبه التى تدل عليه .

(لا تعلمهم نحن تعلمهم) أى لا تعرفهم أيها الرسول الكريم بفطنتك ودقيق فراستك لحذقهم فى التقية وتباعدهم عن مثار الشبهات ، بل نحن نعلمهم بأعيانهم ، وهؤلاء أخفى نفاقا من قال الله فيهم : « أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ

يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ . وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَتَعْرِفْتَهُمْ بِسَمَائِهِمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ » .

وهؤلاء لم يعلمه الله أعيانهم ولا فضحهم بأقوال قالوها ولا بأفعال فعلوها كما فضح غيرهم في هذه السورة لأنهم يتحامون ما يكون شبهة في إيمانهم ، وضررهم مقصور عليهم لا يعمدهم إلى سواهم .

والحكمة في إخبارنا بحالهم أن يعلموا هم أنفسهم أن الله عليهم بما يسرون من نفاقهم ، ويحذروا أن يفضحهم الله كما فضح سواهم ، وليتوب منهم من يتوب قبل أن يحل بهم ما أوعدهم به ربهم بقوله :

(سنعذبهم مرتين ثم يردون إلى عذاب عظيم) أى سنعذبهم في الحياة الدنيا مرتين : أولاهما ما يصيبهم به من المصائب وانتظار القضيحة بهتك أستارهم . وثانيتهما آلام الموت وزهوق أنفسهم وهم كافرون ، وضرب الملائكة وجوههم وأدبارهم في ذلك الحين ، ثم يردون يوم القيامة إلى عذاب جهنم وبئس المصير .

وإخلاصة — إنهم يعذبون في الدنيا بالعذاب الباطن بتوبيخ الضمير وعذاب الخوف من القضيحة على رؤوس الأشهاد في الظاهر ، ثم عذاب النار وبئس القرار . وجملة القول — إن المنافقين فريقان : فريق عرفوا بأقوال قالوها وأعمال عملوها ، وفريق مردوا على النفاق وحذقوه حتى لا يشعر أحد بشيء يستنكره منهم .

وهذان الفريقان يوجدان في كل عصر ، فما من قطار من الأقطار إلا منى أهله بأعوان وأنصار منهم يزعمون أنهم يخدمون أمتهم من طريق استمالة العاصب واسترضائه ، وأنه لولاهم لتأدى في ظلمه وهضم حقوق الأمة ولم يقف عند حد ، ومنهم من يخدمون المستعمرين خدمة خفية لا تشعر بها الأمة لأنهم مروا على النفاق .

وأشد المنافقين مردوا على النفاق أعوان الملوك المستبددين الذين يلبسون الباطل لباس الحق ويروجونه في أعين الجماهير خدمة لأولئك الملوك .

(وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا) أى وهناك فريق

آخر من حولكم من الأعوان ومن أهل المدينة ليسوا منافقين ولا من السابقين الأولين ، بل من المذنبين الذين خلطوا الصالح من العمل بالسيئ منه ، والسيئ بالصالح ، فلم يكونوا من الصالحين الخالص ولا من الفاسقين ، فهم قد آمنوا وعملوا الصالحات واقترفوا بعض السيئات كالذين تخلفوا عن الخروج إلى غزوة تبوك من غير عذر صحيح ولم يستأذنوا كاستئذان المرتابين ولم يعتذروا بالكذب كالمنافقين ، ثم كانوا حين قعودهم ناحيين لله ورسوله شاعرين بذنوبهم خائفين من ربهم .

وقد بين سبحانه حالهم بقوله :

(عسى الله أن يتوب عليهم) أى إنهم محل الرجاء لقبول الله توبتهم بتوفيقهم للتوبة الصحيحة التى هى سبب المغفرة والرحمة - وإنما يكون ذلك بالعلم بقبح الذنب وسوء عاقبته ، وتوبيخ الضمير حين تصور سخط الله والخوف من عقابه - ثم الإقلاع عنه بباعث هذا الألم ، والعزم على عدم العود إلى اقترافه ، والعزم على العمل بضده ليحوأثره من نفسه .

ثم علل هذا بقوله :

(إن الله غفور رحيم) أى إنه تعالى يقبل توبتهم لأنه كثير المغفرة للتائبين ، واسع الرحمة للمحسنين .

وفى معنى الآية قوله : « وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى » وقوله : « إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ »

قال جماعة من العلماء : إن هذه الآية أرجى آية فى القرآن فى توقع رحمة الله للمذنبين الذين يجتريحون السيئات ثم يتوبون إلى ربهم ويقبلون عن ذنوبهم .

روى البخارى عن سمرة بن جندب أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « أتانى الليلة (أى فى المنام) ملكان فابتعثانى فاتهما بى إلى مدينة مبنية ببلن ذهب ولبن فضة فتلقانا رجال شطرو من خلقهم كأحسن ما أنت راء وشطرو كأقبح ما أنت راء ، قالوا لهم اذهبوا فقموا فى ذلك النهر ، فوقعوا فيه ثم رجعوا إلينا قد ذهب ذلك السوء

عنهم فصاروا في أحسن صورة ، قالوا لي هذه جنة عدن وهذا منزلك ، قالوا وأما القوم الذين كانوا شطر منهم حسن وشطر منهم قبيح فإنهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا فقد تجاوز الله عنهم .

ولاشك أن هذا تمثيل في الرؤيا لتجميل العمل الصالح للنفس وتشويه العمل القبيح لها ، ولتطهيرها بالتوبة وصالح العمل حتى تكون كلها جميلة وأهلا للكرامة بعد أن تبعث كلها في الصورة التي كانت عليها قبل التوبة ، وقد شبه النبي صلى الله عليه وسلم الصلوات الخمس بنهر جارٍ يفيض على عتبة الإنسان كل يوم خمس مرات فهل يبقى عليها ومسخا أو قدرا ، وفي الحديث : « أتبع السيئة الحسنة تمحها » .

خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلَّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ ، وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٠٣) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٠٤) وَقُلْ اْعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٠٥)

شرح المفردات

الصدقة : ما ينفقه المؤمن قربة لله ، والتزكية ، من قولهم رجل زكى : أى زاهد الخير والفضل قاله في الأساس ، والصلاة : الدعاء ، والسكن : ما تسكن إليه النفس وترتاح من أهل ومال ومتاع ودعاء وثناء .

المعنى الجملى

جاءت هذه الآيات في بيان فوائد صدقة الأموال والحث عليها وقبول التوبة لمن قصر في الجهاد في سبيل الله بماله ونفسه .

روى ابن جرير أن أبا لبابة وأصحابه (من تخلفوا وتابوا وسيأتى ذكرهم) جاءوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أطلقوا فقالوا يا رسول الله هذه أموالنا فتصدق بها عنا واستغفر لنا فقال « ما أمرت أن آخذ من أموالكم شيئا » فأنزل الله (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها) فلما نزلت آخذ الثالث من أموالهم فتصدق به عنهم .

وهذا النص وإن كان سببه خاصا ، عام فى الأخذ ، يشمل خلفاء الرسول من بعده ومن بعدهم من أئمة المسلمين ؛ وفى المأخوذ منهم وهم المسلمون الموسرون ، ومن ثم قاتل أبو بكر الصديق وسائر الصحابة مانعى الزكاة من أحياء العرب حتى أدوا الزكاة كما كانوا يؤدونها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال : « والله لو منعوني عقالا كانوا يؤدونه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لأقاتلنهم على منعه » .

الإيضاح

(خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها) أى خذ أيها الرسول من أموال هؤلاء ومن غيرهم من سائر أموال المؤمنين على اختلاف أنواعها من نقد وأنعام وأموال تجارة ، صدقة بمقدار معين فى الزكاة المفروضة أو بمقدار غير معين فى زكاة التطوع تطهرهم بها من دنس البخل والطمع والقسوة على الفقراء البائسين ، وتزكى أنفسهم بها وترفعهم إلى منازل الأبرار بفعل الخيرات حتى يكونوا أهلا للسعادة الدنيوية والأخروية .

وقد نسبت التزكية إلى الله فى قوله : « وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا ، وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ » لأنه الخالق الموفق للعبد لفعل ما تزكوه نفسه وتصلح .

ونسبت إلى رسول الله فى هذه الآية فى قوله : « هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَقُولُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ »

لأنه هو المراد بالمتوهمين على ما تزكوا به نفوسهم ويعلمون قدرها باتباعهم سنته العملية والقونية وبيانه لكتاب الله ، فهو القدوة الحسنة لهم .

ونسبت إلى الفاعل لها في نحو قوله : « قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا . وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا » وقوله : « قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى » لأنه قد فعل ما كان سببا في طهارة نفسه وزكاتها من صدقات ونحوها من أعمال البر .

وأما النهي عن تزكية النفس في قوله : « فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى » وقوله : « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ » فذاك في تزكية النفس بدعوى اللسان فقط دون عمل يؤيدها .

(ووصل عليهم إن صلاتك سكن لهم) أى وادع أيها الرسول للمتصدقين واستغفر لهم ، فإن دعائك واستغفارك سكن لهم يذهب به اضطراب نفوسهم وتطمئن قلوبهم بقبول توبتهم ، ويرتاحون إلى قبول الله صدقاتهم بأخذك لها ووضعها في مواضعها .

والصلاة من الله على عباده رحمته لهم ، ومن ملائكته استغفاره كما قال تعالى : « إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا » ومن المؤمنين على النبي صلى الله عليه وسلم دعاؤهم له بما أمرهم به في الصلاة بعد التشهد الأخير كالدعاء المذكور (اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمدا الوصيلة والفضيلة وابعنه المقام المحمود الذى وعدته إنك لا تخلف الميعاد) .

(والله سميع عليم) أى والله سميع لاعترافيهم بذنوبهم ، سميع لدعائك سماع قبول وإجابة ، عليم بندمهم وتوبتهم منها وإخلاصهم في صدقاتهم وطيب أنفسهم بها ، وعليم بما فيه الخير والمصلحة لهم وهو الذى يثيبهم عليها .

وقد روى البخارى ومسلم عن عبد الله بن أبى أوفى قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أتاه قوم بصدقته قال : « اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى فُلَانٍ » فأتاه أبى بصدقته فقال : « اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى آلِ أبى أوفى » .

وفى هذا إيماء إلى أن المراد بالصدقة ما يعم الفريضة وغيرها ، وإلى أنه صلى الله عليه وسلم كان مواظبا على هذا الدعاء ، ومن ثم قيل إن هذا الأمر اللوجب وهو خاص به صلى الله عليه وسلم .

فوائد الصدقات فى إصلاح المجتمع الإسلامى

الصدقات تطهر أنفس الأفراد من أرجاس البخل ، والدناءة والآثمة ، والطمع والجشع ، وتبدهم عن أكل أموال الناس بالباطل من خيانة وسرقة وغصب وربا ، وغير ذلك . فإن من يتعود بذل بعض ما فى يده أو ما أودعه فى خزائنه فى سبيل الله ابتغاء مرضاته ومغفرة ذنوبه - يكن أرفع نفسا من أن يأخذ مال غيره بغير حق ، وإذا طهرت أنفس الأفراد وزكت بالعلم والتقوى وهما ثمرة الإيمان طهرت جماعة المؤمنين من أرجاس الرذائل الاجتماعية التى هى مثار التحاسد والتعادى والبغى والعدوان والفتن والحروب ، فإن الأموال قوام الحياة المعيشية للفرد والمجتمع ، فهى مثار التنازع والتخاصم ، ومن ثم أوجب الدين على أصحاب الأموال من النفقات والصدقات ما يجعل الثروات وسيلة للسلام لا إلى الخصام .

وقد جمع الإسلام بين مصالح الروح والجسد للوصول إلى السيادة فى الدنيا والسعادة فى الآخرة ، فهو وسط بين اليهودية المفرطة فى حب المال ، والنصرانية الروحانية الزاهدة ، فمن أهم مقاصده الإصلاحية فى الاجتماع البشرى هداية الناس إلى العدل فى أمر المال ليتعدوا عن شرطغيان الأغنياء على الفقراء ، ونصوص الدين فى هذا الباب هى الغاية التى لا يطمح مصلح فى التطلع إلى ما بعدها ، وهى هادمة لمزاعم من يفتات على الإسلام من أرباب الجهل والهوى .

وقد فرضت الزكاة المطلقة فى أول الإسلام وكانت اشتراكية ، والباعث عليها القلوب والضائر لا إكراه الحكام ، ثم جعلت معينة محدودة عند ما صار للإسلام دولة . وسر الوضع الأول أن جماعة المسلمين فى مكة قبل الهجرة كانوا محصورين ،

هكذا
نفسه
سدا
وحرره
لنفسه
من المال
مورد
محمد

ومنهم الموسر والمعسر وصاحب الثروة وذو الفقر المدقع ، فوجب أن يقوم أغنياؤهم بكفالة فقرائهم وجوبا دينيا إذا كانت الزكاة المعينة لا تكفيهم .

ولاشك أن الأسس الإصلاحية للمال التى وضعها الإسلام لا يتسنى لأقدر الأمم المالية فى العصر الحاضر أن تضع خيرا منها ، انظر إليه تراه حرم الربا والقمار لما أنهما يوجدان التنازع والتخاصم بين الناس وإن كان فيها بعض المكاسب ، وأوجب الحبحر على السفهاء فى أموالهم صيانة لها عن الضياع فيما يضرهم ويضر أمتهم ، وفرض النفقة الزوجية والنفقة على ذوى القرابة من ذوى الحاجة ، وذم الإسراف والتبذير والبخل والجشع والتقتير ومدح القصد والاعتدال فى النفقة على النفس والعيال ، وأباح الزينة والطيبات من الرزق بشرط اجتناب الإسراف حفظا للثروة من الضياع وبُعدا عن الأمراض والأدواء البدنية ، وجعل زكاة النقيدين الواجبة هى ربع العشر أى $\frac{1}{4}$ وهو أوسط ربح تدفعه المصارف المالية لمودعى نقودهم فيها للاستغلال .

انظر إلى الثروة فى مصر نقدا وتجارة وتأمل مقدار ربع العشر الواجب فيها فى كل عام لفقرائها ومراقبتها العامة ، ثم قدر فى نفسك إذا هى قامت بالواجب الدينى عيبا فى الزكاة ، هل يكون فيها فقر مدقع أو شقاء بين أفراد الأمة ، هل تتصور أن تنتشر فيها الأمراض المعدية أو ينجم على أفرادها الجهل ، أو ترتكب فيها جنایات السراق وقطاع الطرقات وذوى الخيانة والغدر ، أظن أن الجواب على ذلك : لا .

وقد جاء فى الكتاب والسنة الترغيب فى بذل المال فى سبيل البر وجعله علامة من علامات الإيمان الموجبة لثواب الرحمن والدخول فى غرفات الجنان ، ولم يحىء مثل ذلك فى أى نوع من أنواع البر وضروب الإحسان .

(ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده) أى ألم يعلم أولئك الثابتون من ذنوبهم أن الله هو الذى يقبل توبة الثائنين من عباده ، ولم يجعل ذلك لأحد من خلقه لا رسول ولا من دونه .

وفى الآية حضّ على التوبة والصدقة والترغيب فيهما .

(ويأخذ الصدقات) أى يتقبلها ويثيب عليها ويضع ثوابها كما وعد بذلك فى قوله : « إِنْ تَقَرَّضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يَضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ » .
 (وأن الله هو التواب الرحيم) أى إنه تعالى هو الذى يقبل التوبة إثر التوبة من المذنبين الذين ينيبون إلى ربهم ، وإنه هو الرحيم بالثائبين الذى يثيبهم على ما قدموا من عمل ، ويمتعهم الخوف أن يصروا على ذنب كما قال تعالى فى وصف المتقين « وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ » وجاء فى الحديث « ما أصغر من استغفر وإن عاد فى اليوم سبعين مرة » رواه الترمذى ، وروى الشيخان عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « ما صدق أحدكم بصدقة من كسب حلال طيب - ولا يقبل الله إلا الطيب - إلا أخذها الرحمن بيمينه وإن كانت تمرة ، فتربو فى كف الرحمن حتى تكون أعظم من الجبل كما يربى أحدكم فُلُوهُ أَوْ فُصِيلُهُ » والحديث تشييل لحال الصدقة المقبولة عند الله .

(وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون) أى وقل لهم أيها الرسول اعملوا الدنيا كم وآخرتكم ، لأنفسكم وأمتكم ، فالعمل هو منطلق السعادة ، لا الاعتذار عن التقصير ولا دعوى الجدة والتشمير ، وسيرى الله عملكم خيرا كان أو شرا ، فيجب عليكم أن تراقبوه فى أعمالكم وتذكروا أنه عليم بمقاصدكم ونياتكم ، فحذير من يؤمن به أن يتقيه فى السر والعين ويقف عند حدود شرعه ، وسيراه رسوله والمؤمنون ويزنونه بميزان الإيمان الذى يفرق بين الإخلاص والنفاق ، وهم شهداء على الناس .

روى أحمد والبيهقى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « لو أن أحدكم يعمل فى صخرة صماء ليس لها باب ولا كوة لأخرج الله عمله للناس كائن ما كان » .
 وفى الآية إيماء ^{بأن} إلا أن مرضاة جماعة المؤمنين القاعمين بحقوق الإيمان تلى مرضاة الله ورسوله ، وفى حديث أنس رضى الله عنه قال : « مروا بجنابة فأنشوا عليها خيرا

إلى م

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : «وَجِبَتْ ثُمَّ مَرَوْا بِأُخْرَى فَأَتْنَاهَا عَلَيْهِمَا شَرًّا فَقَالَ وَجِبَتْ
فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : «وَجِبَتْ لَكَ قَالَ : هَذَا أَتْنَيْتُمْ عَلَيْهِ خَيْرًا فَوَجِبَتْ
بِهِ الْجَنَّةُ ، وَهَذَا أَتْنَيْتُمْ عَلَيْهِ شَرًّا فَوَجِبَتْ لَهُ النَّارُ ، أَتَمَّ شَهَادَةُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ » .
وقال ابن عباس ما رآه مسلمون حسنا فهو عند الله حسن .

(وسترّدون إلى عالم العيب والتمهدة فينبئكم بما كنتم تعملون) أى وسترّدون
يوم القيامة إلى من يعلم سرايركم وعلامتكم ، ومن لا يخفى عليه شيء من مواطن أموركم
وظواهرها فيعرفكم أعمالكم ثم يحازكم عنها بحسن الثواب أو سوء العذاب .

وَأَخْرُوجُونَ مُرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ ، وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ، وَاللَّهُ
عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٠٦) .

شرح المفردات

مرجون ومرجئون وبهما قرئ : أى مؤخرون . يقال أرجأت الأمر وأرجيته :
أى أخرته .

المعنى الجملى

كان المتخفون عن الجهاد في غزوة تبوك أقساما ثلاثة :

- (١) المنافقون الذين مردوا على النفاق ، وهم أكثر المتخفين .
- (٢) المؤمنون الذين اعترفوا بذنوبهم وتابوا وكانوا توبتهم بالصدقة وطلب
دعاء الرسول واستغفاره فتاب الله عنهم .
- (٣) المؤمنون الذين حاروا في أمرهم ولم يعتذروا للرسول صلى الله عليه وسلم
لأنهم لا عذر لهم ، وأرجئوا توبتهم فأرجأ الله الحكم القاطع في أمرهم لأسباب
مستدركة بعد .

قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة : هم الثلاثة الذين خلفوا عن التوبة ، وهم مرارة ابن الربيع ، وكعب بن مالك ، وهلال بن أمية ، قعدوا عن غزوة تبوك فى جملة من قعد كسلا وميلا إلى الدعة والتمتع بطيب الثمار ، والتفويض بالظلال لاشكاً ونفاقاً ، وكانت منهم طائفة ربطوا أنفسهم بالسوارى كما فعل أبو لبابة وأصحابه ، وطائفة لم يفعلوا ذلك وهم هؤلاء الثلاثة المذكورون ، فنزلت توبة الأولين قبل توبة هؤلاء وأرجئت توبة هؤلاء حتى نزلت آية التوبة «أَقْدَمَ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ» الخ.

الإيضاح

(وآخرون مرجون لأمر الله) أى ومن المتخلفين ناس آخرون مؤخرون لحكم الله فى أمرهم ، وهم أولئك نفر الذين سبق ذكرهم وكانوا تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مع الهمّ بالحاق به ولم يتيسر لهم ولم يكن تخلفهم عن نفاق ، فلما قدم النبي صلى الله عليه وسلم قالوا لاعدز لنا إلا الخطيئة ولم يعتذروا له صلى الله عليه وسلم كما فعل أبو لبابة وأصحابه من الذين ربطوا أنفسهم فى سوارى المسجد فنزل فيهم قوله تعالى .

(وآخرون مرجون) الآية فنهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن مجالستهم وأمرهم باعتزال نسائهم وإرسالهن إلى أهلهن إلى أن نزل قوله (لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار) الآية .

(إما يعذبهم وإما يتوب عليهم) أى إن أمرهم دائر بين هذين : التعذيب والتوبة وقد أُبْهِمَ الأمر عليهم وعلى الناس فلا يدرون ماذا ينزل بهم ؟ هل تنفع توبتهم فيتوب الله عليهم كما تاب على الذين اعترفوا بذنوبهم ، أو يحكم بعذابهم فى الدنيا والآخرة كما حكم على الخالفين من المنافقين .

وحكمة إبهام الأمر إثارة الغم والحزن فى قلوبهم لتصحّ توبتهم .

وحكمة إبهامه على الرسول والمؤمنين تركهم مكائهم ومخالطتهم ، تربية للفريقين

على ما يجب أن يعامل به أمثالهم ممن يؤثرون الراحة ونعمة العيش على طاعة الله ورسوله والجهاد لإعلاء كلمة الحق ودفع عدوان أهل الباطل عن المؤمنين .

(والله عليم حكيم) أى والله عليم بما يصلح حال عباده ويربهم ويركهم أفراداً وجماعات ، حكيم فيما يشرعه لهم من الأحكام المفيدة لهذا الصلاح إذا عملوا بها . ومن هذه الحكمة إرجاء النص على توبتهم فى كتابه ، كما أن تكرار تلاوتها فى مختلف الأوقات مما يقع فى قلوب المؤمنين الرهبة والخوف ويفيدهم عظة وتهذيباً .

وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ
وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ، وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى
وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٠٧) لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ، لَمَسْجِدٍ أُسَسَّ عَلَى
التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ ، فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا ،
وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ (١٠٨) أَقْمِنَ أُسَسَ مُبْنِيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنْ اللَّهِ
وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مِنْ أُسَسَ مُبْنِيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرْفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ
فِي نَارِ جَهَنَّمَ ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠٩) لَا يَزَالُ مُبْنِيَانَهُمُ الَّذِي
بَنَوْا رِيَّةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ، وَاللَّهُ عَالِمٌ حَكِيمٌ (١١٠) .

شرح المفردات

الضرار والمضارة : محاولة إيقاع الضرر ، والإرصاد : الانتظار والترقب مع العداوة يقال رصدته : أى قعدت له على طريقه أترقبه ، وأرصدت هذا الجيش للقتال ، وهذا الفرس للطراد ، ولا تتم : أى لا تنصل ، والتأسيس : وضع الأساس للبناء ايقوم عليه ويرفع ، والتقوى : اسم لما يرضى الله ويبقى من سخطه ، وشفا أى حرف

والخرف (بضمين) : جانب النودى ونحوه ، والمار والهاثر : كالشاك والشائت :
الضعيف المتداعى لسقوط ، والنهر : سقط ، والريبة : من الرب ، وهو اضطراب
النفوس وتردد الوهم والخيرة ، وتقطع : أى نفرق أجزاء .

المعنى الجملى

هذه الآيات نزلت فى بيان مكيدة من مكائد المنافقين لرسول الله صلى الله عليه
وسم والمؤمنين ، وذكرت هنا لما فيها من العبرة والعظة والذكرى بأنهم عطفها على من
أرجأ الله الحكم فى أمرهم ليتعظ أولئك الغافلون من المؤمنين المغرورين بمسجد الضرار
ومتخذيه ، ويخافوا أن يؤاخذوا بشايعتهم لهم ولو بصلاتهم معهم فى مسجدهم .

روى فى سبب نزول الآيات أنه كان بالمدينة قبل مقدم رسول الله صلى الله عليه
عليه وسلم إليها رجل من النخريج يقال له أبو عامر الراهب ، كان قد تنصرو وقرأ علم أهل
الكتاب وكان له منزلة كبيرة فيهم ، فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى
المدينة مهاجرا واجتمع عليه المسلمون وعلت كلمة الإسلام وأظهره الله على أهل الشرك
خرج فارا إلى مكة وألب المشركين على النبي صلى الله عليه وسلم فى وقعة أحد وخاطب
قومه الأنصار ليستميلهم إلى نصره فسيوه وردوه أقيح رد ، ولم يفرغ الناس من الواقعة
فرأى إلى هرقل ملك الروم يستنصره فوعده وحباه وكتب أبو عامر إلى جماعة من
قومه من أهل النفاق أنه سيقدم بجيش يقاتل به محمدا ويغلبه وأمرهم أن يتخذوا له
مقلا يأوى إليه من يقوم من عنده لأداء كتبه ويكون مرصدا له إذا قدم عليهم بعد
ذلك ، فشرعوا فى بناء مسجد مجاور لمسجد قباء فبنوه وأحكموا بناءه وفرغوا منه قبل
خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تبوك ، وجاءوا فسالوه أن يصلى فى مسجدهم
ليكون ذلك ذريعة إلى تقريره لإثباته ، وذكروا أنهم إنما يتنوه للضعفاء منهم وأهل
العة فى الليلة الشاتية فعصمه الله من الصلاة فيه فقال : « إنا على جناح سفر ولسكن
إذا رجعنا إن شاء الله » .

ولما قهل عليه السلام راجعا إلى المدينة من تبوك ولم يبق بينه وبينها إلا يوم أو بعض يوم نزل عليه جبريل بخبر مسجد الضرار وما اعتمده بانوه من الكفر والفريق بين جماعة المؤمنين في مسجدهم (مسجد قباء) الذي أسس من أول يوم على التقوى ، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ذلك المسجد وهدمه قبل مقدمه المدينة وأمر أن يتخذ كناسة يلقى فيها القمامة إهانة لأهله .

الإيضاح

(والذين اتخذوا مسجدا ضاررا وكفرا وتفرقا بين المؤمنين ورضاء لمن حارب الله ورسوله من قبل) . . .

روى أن الذين اتخذوا هذا المسجد كانوا اثني عشر رجلا من منافقي الأوس والخزرج ، وقد بين الله الأغراض التي لأجلها بُني ، وهي :

(١) مضارة المؤمنين من أهل مسجد قباء الذي بناه رسول الله صلى الله عليه وسلم مقدمه من مكة مهاجرا قبل وصوله إلى المدينة .

(٢) نقوية الكفر وتسهيل أعماله من فعل وترك كتمكين المنافقين من ترك الصلاة هناك مع خفاء ذلك على المؤمنين لعدم اجتماعهم في مسجد واحد ، والتشاور فيما بينهم في الكيد لرسول الله صلى الله عليه وسلم والطعن فيه إلى نحو أولئك من مقاصد المنافقين .

(٣) التفریق بين المؤمنين المقيمين هنالك ، فإنهم كانوا يصلون جميعا في مسجد قباء ، وفي ذلك حصول التعارف والتآلف والتعاون وجمع الكلمة وهو أهم مقاصد الإسلام الاجتماعية ، ومن ثم كان كثير المساجد وتفریق الجماعة منافيا لأغراض الدين ومراميه ، ومن الواجب أن يصلى المسلمون الجمعة في مسجد واحد ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ، فإن نفرقوا عدا كانوا آثمين .

ومن هذا يعلم أن بناء المساجد لا يكون قربة يتقبلها الله إلا إذا دعت الحاجة

إلى ذلك ، ولم يكن سببا لتفريق جماعتهم ، فكثير من المساجد المتقاربة في القاهرة وغيرها من الأمصار الأخرى لم تُبَنّ لوجه الله بل كان الباعث على بنائها الرياء واتباع الأهواء من جهلة الأفراد والأثرياء . وعدم نصيح العلماء لهم .

(٤) الانتظار والتقرب لمن حارب الله ورسوله أن يحىء محاربا فيجد مكانا مرصدا له ، وقوما راصدين مستعدين للحرب معه ، وهم أولئك المناقون الذين بنوا هذا المسجد مرصدا لذلك .

(وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى والله يشهد إنهم لكاذبون) أى وليحلفن ما أردنا بينائنه إلا الخصلة التى تفوق غيرها فى الحسن ، وهى الرفق بالمسلمين وتيسير صلاة الجماعة على أولى العجز والضعف ومن يحبسهم المطر منهم ، ليصدقهم الرسول صلى الله عليه وسلم وليصلى معهم ، والله يعلم إنهم لكاذبون فى إيمانهم لأنهم ما بنوه إلا للسوءى وضرار مسجد قباء .

(لاتقم فيه أبدا) أى لاتقم فى هذا المسجد للصلاة أبدا .

(لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه) أى إن مسجدا قصد بينائنه منذ وضع أساسه فى أول يوم تقوى الله بإخلاص العبادة له وجمع المؤمنين فيه على ما يرضيه من التعارف والتعاون على البر والتقوى - هو أحق من غيره أن تقوم فيه أيها الرسول مصليا بالمؤمنين .

والسياق يدل على أن المسجد الذى أسس على التقوى هو مسجد قباء ، ولكن روى أحمد ومسلم والنسائى أن النبى صلى الله عليه وسلم سئل عنه فأجاب بأنه مسجده الذى فى المدينة ، والآية لاتمنع إرادة كل من المسجدين ، لأن النبى صلى الله عليه وسلم قد بنى كلا من المسجدين ووضع أساسه على التقوى من أول يوم شرع فيه بينائنه . (فيه رجال يحبون أن يتطهروا) أى فيه رجال يعمرونه بإقامة الصلاة وذكر الله وتسييحه فيه بالندوة والآصال ، ويحبون أن يتطهروا بذلك مما يعلق بأنفسهم من أوضار الذنوب والآثام ، كما تطهر المتخلفون منهم من غزوة تبوك بالتوبة والصدقات ، ويتبع

العمارة المعنوية بالعكوف فيه للصلاة وغيرها - الطهارة الحسية للشوب والبدن ، وطهارة الوضوء والاغتسال .

والخلاصة - إن التطهر يشمل الطهارتين النفسية والبدنية ، والروايات وردت بكل منهما ، والأولى إرادتهما معا .

(والله يحب المطهرين) أى الذين يبذلون فى طهارة الروح والجسد لجلبهم إياها ، لأنهم يرون فيها الكمال الإنسانى ، فمن تم يفضون نجاسة البدن والشوب ، وأشدّ منهما بفضاهاهم نجاسة النفس وخبثها بالإصرار على فعل المعاصى والتخلق بذميمة الأخلاق كالرياء فى الأعمال إذ هو فعل المنافقين ، والشح بالأموال أو بالأنفس فى سبيل الله ابتغاء لمرضاته .

وحب الله إياهم من صفات كماله ، إذ العالم بتفاوت الأشياء فى الحسن والقبح والكمال والنقص يكون من صفاته حب الكمال والحق والخير وبغض أضدادها .

وحبه تعالى منزّه عن مشابهته حبنا كتمنزه ذاته وسائر صفاته عن مشابهة ذواتنا وصفاتنا ، ويظهر أثر حبه لعباده فى أخلاقهم وأعمالهم ومعارفهم وآدابهم كما أشير إليه الحديث القدسي الذى رواه البخارى « ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به » الحديث .

وفى معنى الآية ما جاء فى عظة نساء النبى صلى الله عليه وسلم وأمرهن باتباع أوامره ونواهيه بما يليق بما لهن من مكانة من رسول الله صلى الله عليه وسلم وتعليم ذلك بقوله : « إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا »

(أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير ، أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به فى نار جهنم) هذا بيان مستأنف للفرق بين مقاصد أهل مسجد التقوى وهم الرسول صلى الله عليه وسلم وأنصاره ، ومقاصد أهل مسجد الضرار الذى زادوا به رجسا إلى رجسهم .

والأساس على شفا الجرف الهار مثل يضرب لما يكون فى منتهى الوهمي والانحلال

والإشراف على الزوال، أى أمن أسس بنيانه الذى يتخذ موطئ لراحته وهناء معيشته ويتقى به العوامل الجوية ، وعدو الكائنات الحية على أمن الأسس وأقواها على مصابة العواصف والسيول وصد الهوام والوحوش - خير بنيان - ثم من أسس بنيانه على أوهى القواعد وتبدى بقاءه واستمساكا فكانت عرضة للانهدار فى كل حين من أيل أو نهار ؟

وقد ضرب الله مثل البنيان على تينك الصفتين لبيان حال المريقين المتقدمين من صدق الإيمان ، والنفاق والارتياب . أى أمن كان مؤمنا صادقا يتقى الله فى جميع أحواله ويتقى مرضاته فى جميع أعماله ، فأصدا تركية نفسه وإصلاح سريرته - خير أم من هو منافق مرتاب ، يتقى بأعماله الضرر والضرار وتقوية أعمال الكفر مموالة الكفار وتقريب جماعة المؤمنين والإرصاد لمساعدة من حارب الله ورسوله مع ما يكون لعمله فى الدنيا من العار والفضيحة والخزي والبوار ، وفى الآخرة من الانهدار فى النار .

وخلاصة المثل - بيان ثبات الإسلام وقوته وسعادة أهله به وثمرته فى أعمالهم وجزائهم عليه برضوان الله عنهم ، وبيان ضعف الباطن واضمحلاله ووهيه وقرب زواله وخيبة صاحبه وسرعة انقطاع آماله . وبيان أن شر أعمال أهل المنافقين ، ما اتخذوه من مسجد الضرار لمقاسده الأربع المتقدمة .

فالإيمان وما يلزمه من صالح العمل هو الثابت ، والنفاق وما يستلزمه من فاسد العمل هو الباطل الزاهق بحكم ناموس الاجتماع وبقاء الأصلح فى الوجود ، وقد صدق الله وعده وثبت المؤمنين بالقول الثابت ، وهداهم إلى العمل الصالح ففتحوا البلاد وأقاموا سبل الحق والعدل ، وأهلك الله المنافقين ، وقد جرت سنة الله فى كل زمان ومكان أن يكون الفوز حليف أهل الحق ، والخيبة لأهل الباطل ما استمسكوا به ، ولم يقلعوا عنه .

(والله لا يهدي القوم الظالمين) أى مضت سنته تعالى ألا يكون الظالم مهتديا في أعماله إلى الحق والعدل ، ولا إلى الرحمة والفضل .

(لا يزال بنيانهم الذى بنوا ريبة في قلوبهم إلا أن نقطع قلوبهم) أى لا يزال بنيانهم سبب ريبة وشك في الدين ، لأنهم يظهرون فيه حال قيامه ما في قلوبهم من آثار الكفر والنفاق ويدبرون أمورهم ويتشاورون في ذلك ويلقى بعضهم إلى بعض ماسمعوا من أسرار المؤمنين مما يزيدهم ريبة وشكا في الدين ، ولكن حين أمر صلى الله عليه وسلم بتخريبه وهدمه ثقل ذلك عليهم وعظم خوفهم وارتابوا في أمرهم : يتركون على حالهم أم يؤمرهم فيقتلون ونهب أموالهم ، إلى أنهم اعتقدوا أنهم كانوا محسنين في البناء ، فلما أمر بتخريبه أصبحوا شاكين في أمره ، ولأى سبب كان ذلك .

ولا يزال هذا شأنهم في جميع الأحوال إلا حال تقطع القلوب أفلاذا وصيرورتها جذاذا ، فتكون غير قابلة للإدراك .

وفي هذا إيماء إلى تمكن الريبة في قلوبهم وإضمار الشرك بحيث لا يزول منه ما داموا أحياء .

والخلاصة — إنه لا يزال هدم بنيانهم الذى بنوا سببا للقلق واضطراب النفس وإن ذلك لا يزول ما دامت القلوب سالمة — أما إذا تفرقت قطعا ونقطعت أجزاء بقتلهم فحينئذ يسون عنه .

وقد يكون المراد إلا أن يتوبوا توبة تنقطع بها قلوبهم ندما وأسفا على تفریطهم (والله عليم حكيم) أى والله عليم بكل شيء . حكيم في أفعاله . ومن حكمته أن يبين حال المنافقين وأظهر ما خفي من أمرهم لتعرفوا كنه الحقيقة في ذلك .

إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ
مُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ

وَالْأَنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ، وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنْ اللَّهِ، فَاسْتَبْشِرُوا بِيَدَيْكُمْ الَّتِي
بَايَعْتُمْ بِهِ، وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١١) التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ
السَّائِحُونَ الرَّائِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ
الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ، وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٢).

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه فضائح المنافقين بسبب تخلفهم عن غزوة تبوك، وأصناف
المقصرين من المؤمنين، أردف ذلك بذكر حال المؤمنين الصادقين، في إيمانهم البالغين
فيه حد الكمال، وبذا تم معرفة جميع أحوال المؤمنين.

الإيضاح

(إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة) هذا ترغيب
في الجهاد على أبلغ وجه وأحسن صورة، فقد مثل الله إثابة المؤمنين على بذل أنفسهم
وأموالهم في سبيله بتخليكهم الجنة التي هي دار النعيم والرضوان الدائم السرمدي تفضلا
منه تعالى وكرما - بصورة من باع شيئا هو له لآخر - وعاهد عقد البيع هورب العزة،
والبيع هو بذل النفس والأموال، والتمن هو مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر
على قلب بشر، وجعل هذا العقد مسجلا في الكتب السماوية، وناهيك به من
صك لا يقبل التحلل والفسخ، وفي هذا منتهى الربح والفوز العظيم، وكل هذا لطف
منه تعالى وتكريم لعباده المؤمنين، فهو المالك لأنفسهم إذ هو الذي خلقها، ولأموالهم
إذ هو الذي رزقها، ولهذا قال الحسن: اشترى أنفسا هو خلقها، وأموالا هو رزقها،
إلى أنه تعالى غنى عن أنفسهم وأموالهم والبيع والتمن له وقد جعله بفضله وكرمه لهم.

روى ابن أبي حاتم وابن مردويه عن جابر قال: نزلت هذه الآية على رسول الله

صلى الله عليه وسلم وهو في المسجد فكبر الناس في المسجد فأقبل رجل من الأنصار ثانيا طرفي رداءه على عاققه فقال : يا رسول الله أنزلت فينا هذه الآية ، قال « نعم » فقال الأنصاري : بيع ربيع لا ثقيل ولا نستقيل .

وأخرج ابن جرير أن عبد الله بن رواحة قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : اشترط لنفسك ولربك فقال : « أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا ، وأشترط لنفسى أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم ، قالوا فإذا فعلنا ذلك فما لنا ؟ قال : الجنة ، قال : ربح البيع لا ثقيل ولا نستقيل ، فنزلت الآية » .

وأخرج ابن سعد في طبقاته عن عباد بن الوليد بن عباد بن الصامت ، أن سعد ابن زُرارة أخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة فقال : يا أيها الناس هل تدرون علام تبايعون محمدا ؟ إنكم تبايعونه على أن تحاربوا العرب والعجم والجن والإنس كافة . فقالوا نحن حرب لمن حارب ، وسلم لمن سالم . فقال يا رسول الله اشترط على ، فقال : تبايعوني على أن تشهدوا أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله ، وتقيموا الصلاة وتؤتوا الزكاة ، والسمع والطاعة ، ولا تنازعوا الأمر أهله ، وتمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأهلكم ، قالوا نعم . قال قائل الأنصار : نعم هذا لك يا رسول الله ، فما لنا ؟ قال الجنة والنصر .

وأخرج ابن سعد عن الشعبي قال : انطلق النبي صلى الله عليه وسلم بالعباس ابن عبد المطلب وكان ذا رأى إلى السبعين من الأنصار عند العقبة ، فقال العباس ليتكلم متكلمكم ولا يطيل الخطبة ، فإن عليكم للمشركين عينا ، وإن يعلموا بكم يفضحوك فقال قائلهم : يا محمد سل لربك ما شئت ، ثم سل لنفسك ولأصحابك ما شئت ، ثم أخبرنا ما لنا من الثواب على الله وعليكم إذا فعلنا ذلك ؟ ، فقال : أسألكم لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا ، وأسألكم لنفسى وأصحابى أن تؤوؤونا وتنصرونا وتمنعونا مما تمنعون منه أنفسكم ، قال : فما لنا إذا فعلنا ذلك ؟ قال : الجنة ، فكان الشعبي إذا حدث هذا الحديث قال : ماسمع الشيب والشباب بخطبة أقصر ولا أبلغ منها .

وروى ابن مردويه عن أبي هريرة مرفوعاً « من سلّ سيفاً في سبيل الله فقد بايع الله » وروى ابن أبي حاتم عن الحسن قال : ما على ظهر الأرض مؤمن إلا وقد دخل في هذه البيعة ، وفي رواية « اسعوا إلى بيعة بايع الله بها كل مؤمن . إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ » .

ثم بين صفة تسليم البيعة فقال :

(يقاتلون في سبيل الله فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ) أى إنهم يقاتلون في سبيل الحق والعدل التى توصل إلى مرضاة الله تعالى ببذل أنفسهم وأموالهم فيكونون إما فائزين لأعدائه الصادقين عن سبيله ، وإما مقتولين شهداء في هذه السبيل ، ولا فرق بين القاتل والمقتول في الفضل والثوبة عند الله . فكل منهما كان في سبيله ولم يكن رغبة في سفك الدماء ، ولا حباً للأموال ولا توسلاً إلى ظلم العباد كما يفعل الذين يقاتلون لأغراض الدنيا من الملوك والأمراء .

(وعدا عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن) أى وعدهم وعداً أوجبه على نفسه وجعله حقاً وأثبتته في التوراة والإنجيل ، وضياعه منهما في النسخ التى بين يدي أهل الكتاب لا يضير في ذلك ؛ لأنه قد ضاع منهما كثير وحرف بعضهما لفظاً ومعنى ، ويكفى إثبات القرآن لذلك وهو المهيمن عليهما .

(ومن أوفى بعهده من الله ؟) أى لا أحد أوفى بعهده وأصدق في إنجاز وعده من الله ، إذ لا يمنعه من ذلك عجز عن الوفاء ولا يعرض له تردد ولا رجوع عما يريد إمضاءه من شأنه .

(فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به) أى فإذا كان الأمر على هذه الحال فأنظروا السرور على ما فرتم به من الجنة .

(وذلك هو الفوز العظيم) أى الفوز الذى لا فوز أعظم منه ، وما يتقدمه من النصر والسيادة والملك لا يعد فوزاً إلا بكونه وسيلة لإقامة الحق والعدل .

وفي هذا الأسلوب من التأكيد واستحقاق المجاهدين للثواب ما لا يخفى ، إذ جعلهم مالكيين معه ومبايعين له ومستحقين الثمن الذي بايعهم به ، وأكد لهم أمر الوفاء وإنجاز وعده .

وعن جعفر الصادق أنه قال : ليس لأبدانكم ثمن إلا الجنة فلا تبيعوها إلا بها . يريد أن الذي يقتل أو يموت في سبيل الله بذل بدنه القاني ، لاروحه الباقي . ثم وصف الله هؤلاء الكملة من المؤمنين الذين باعوا أنفسهم وأموالهم بجنته — بصفات هي :

(١) (التائبون) أي هم الراجعون إلى الله بتركهم كل ما يبعد عن مرضاته ، وتوبة الكفار هي رجوعهم عن الكفر الذي كانوا عليه كما قال : « فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ » . وتوبة المنافق تكون بترك نفاقه ، وتوبة العاصي من معصيته تكون بالندم على ما حصل منه والعزم على عدم العود لمثله كتوبة من تخلف عن غزوة تبوك من المؤمنين ، وتوبة المقصر في شيء من البر وعمل الخير تكون بالاستزادة منه ، وتوبة من يغفل عن ربه تكون بالإكثار من ذكره وشكره .

(٢) (العابدون) لله المخلصون في جميع عباداتهم ، فلا يتوجهون إلى سواه بدعاء ولا استغاثة ولا يتقربون إلى غيره بعمل قربان ولا طلب مشوبة في الآخرة .

(٣) (الحامدون) لله في السراء والضراء ، روى عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أتاه الأمر يسره قال « الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات » وإذا أتاه الأمر يكرهه قال : « الحمد لله على كل حال » .

(٤) (السائحون) في الأرض لغرض صحيح كعلم نافع للسائح في دينه أو دنياه أو نافع لقومه وأمته أو النظر في خلق الله وأحوال الأمم والشعوب للاعتبار والاستبصار وقد حث الله كثيرا على السير في الأرض والضرب فيها كما قال « أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَلَأْهُمْ تُمُكُنَّا أَنْسِكُمْ » .

وعلى السفر والسياحة لطلب الرزق الحلال من تجارة وغيرها :

والإسلام الذى يميز سفر النساء فى الغزوات وهن غير مكلفات بالقتال للمساعدة عليه بتهيئة الطعام والشراب وتضميد الجراح فهو بالأولى يميز صحبتهن فى سائر الأسفار ، وفى ذلك إحصان لكل من الزوجين ومنع لهما عن التطلع إلى الأجنبي .
 وفسر بعضهم السياحة بالصيام لما روى عن عائشة : سياحة هذه الأمة الصيام لأن الصوم يعوق عن اللذات كما أن السياحة كذلك غالباً .

(٦ ، ٥) (الراكون الساجدون) فى صلواتهم المفروضة ، وخصاً بالذكر لما فيهما من الدلالة على التواضع والعبودية والتذلل لله سبحانه .

(٨ ، ٧) (الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر) أى الداعون إلى الإيمان وما يتبعه من أعمال البر والخير ، والناهون عن الشرك وما يسبيله من المعاصى والسيئات .
 (٩) (الحافظون لحدود الله) أى الحافظون لشرائعه وأحكامه التى بين فيها ما يجب على المؤمنين اتباعه وما يحظر عليهم فعله منها ، وكذا ما يجب على أئمة المسلمين وأولى الأمر منهم إقامته وتنفيذه بالعمل فى أفراد المسلمين وجاعاتهم إذا أخلوا بما يجب عليهم حفظه منها .

ثم ذكر جزاءهم على ذلك فقال :

(وبشر المؤمنين) أى وبشر أيها الرسول المؤمنين المتصفين بهذه الصفات بخيرى الدنيا والآخرة .

وخصت تلك الخلال بالذكر لأن بها تكون المحافظة على حدود الله .

مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَى قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١١٣) وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ ، فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ مُعَادٍ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ (١١٤) وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ

هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١١٥) إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١١٦) .

شرح المفردات

الأَوَّاهُ : الكثير التأوه والتحسر . أو الخاشع الكثير الدعاء والتضرع إلى ربه ، وقيل إنها كلمة حبشية الأصل ، ومعناها المؤمن أو الموقن ، وأصل التأوه : قول أوه أو آه أو نحوها مما يقوله الحزين أو أوه بكسر الهاء وضمها وفتحها ، وآه بالكسر منونا وغير منون ، والحليم : الذى لا يستفرد الغضب ولا يعيث به الطيش ولا يستخفه هوى النفس ، ومن لوازم ذلك الصبر والثبات والصفح والتأني في الأمور واتقاء العجلة في الرغبة والرغبة .

المعنى الجملى

كان الكلام من أول السورة إلى هنا براءة من الكفار والمذققين في جميع الأحوال ، وهنا بين أنه يجب البراءة من أمواتهم وإن قربوا غاية القرب كالآب والأم ، ثم ذكر السبب الذى لأجله استغفر إبراهيم لأبيه وهو وعده بالاستغفار بقوله : « لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ » فلما أصرَّ على كفره تبرأ منه ، وبعدئذ بين رحمته بعباده وأنه لا يعاقبهم على شيء إلا بعد بيان شافي لما يعاقبون عليه .

أخرج أحمد وابن أبي شيبة والبخارى ومسلم وابن جرير وغيرهم عن سعيد ابن المسيب عن أبيه قال : لما حضرت أبا طالب الوفاة دخل عليه النبي صلى الله عليه وسلم وعنده أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية ، فقال : « أى عم قل لا إله إلا الله ، كلمة أحاج لك بها عند الله » فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية : أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرضها عليه ، ويعيدانه بتلك المقالة حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم : على ملة عبد المطلب ، وأبى أن يقول لا إله

إلا الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « والله لأستغفرن لك ما لم أنه عنك »
 فأنزل الله (ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين) وأنزل الله
 فى أبى طالب فقال لرسوله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ
 اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ » وقد كان موت أبى طالب بمكة قبل الهجرة بنحو ثلاث
 سنوات ، ومن ثم استبعد بعض العلماء أن تكون نزلت فى أبى طالب ، وأجاب
 آخرون بأن الذى حصل قد يكون أحد أمرين :

(١) إنها نزلت عقب موته ثم ألحقت بهذه السورة المدنية لمناسبتها لأحكامها
 الخاصة بالبراءة من الكفار وفضيحة المنافقين .

(٢) إنها نزلت مع غيرها من براءة مبينة لحكم استغفار الرسول صلى الله عليه
 وسلم له ، وقد كان من ذلك الحين إلى نزول الآية يستغفر لأبى طالب ، فإن التشديد
 على الكفار والبراءة منهم إنما جاء فى هذه السورة .

وفى الآية إيماء إلى تحريم الدعاء لمن مات على كفره بالمغفرة والرحمة ، أو بوصفه
 بذلك كقولهم المغفور له والمرحوم فلان كما يفعله بعض جهلة المسلمين من الخاصة والعامة .
 وأخرج أحمد ومسلم وأبو داود عن أبى هريرة قال : أتى رسول الله صلى الله
 عليه وسلم قبر أمه فبكى وأبكى من حوله ، ثم قال : استأذنت ربي أن أستغفر لها فم
 يأذن لى واستأذنت أن أزور قبرها فأذن لى فزوروا القبور فإنها تذكركم الموت .

الإيضاح

(ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين) أى ما كان من شأن النبي
 ولا مما ينبغي أن يصدر منه من حيث هو نبي ، ولا من شأن المؤمنين ولا مما يجوز أن
 يقع منهم أن يدعوا الله طالبين منه المغفرة للمشركين .

(ولو كانوا أولى قربي) أى ولو كان لهم حق البر وصلة الرحم ، وكانت عاطفة
 القرابة تقتضى الحذب والإشفاق عليهم .

(من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم) أى من بعد ما ظهر لهم بالدليل أنهم من أصحاب النار ، بأن ماتوا على الكفر ، أو بأنه نزل وحى يسجل عليهم ذلك كإخباره تعالى عن بعض الجاحدين المعاندين بنحو قوله : « سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ » .

وخلاصة ذلك — إن النبوة والإيمان الصادق لا يبيحان الاستغفار للمشركين في كل حال حتى ولو كانوا أولى قربي إذا ظهر لهم بالدليل أنهم من أصحاب الجحيم . ثم أجاب عن سؤال قد يختلج بالخطر مما تقدم ، فيقال كيف يمتنع النبي والمؤمنون من الاستغفار لأقربائهم وقد استغفر إبراهيم لأبيه فقال :

(وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه) أى وما استغفر إبراهيم لأبيه آزر بقوله (وَاعْظِرْ لَأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الظَّالِمِينَ) أى وقفه للإيمان واهده إلى سبيله — إلا عن موعدة وعدها إياه بقوله : « سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي » أى لا أملك لك هداية ولا نجاة وإنما أملك أن أدعو الله لك .

وقد وفى إبراهيم بما وعد ولم يكن إلا وفيا كما شهد الله له بقوله : « وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى » .

(فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه) أى لم يزل إبراهيم يستغفر لأبيه حتى مات ، فلما مات تبين له أنه عدو لله ففترأ منه ، قال ابن عباس ، وقيل تبين له ذلك بوحي من الله ففترأ منه ومن قرابته وترك الاستغفار له ، إذ هذا مقتضى الإيمان كما قال تعالى : « لَا تَحِدُوا قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ » الآية .

ثم بين السبب الذى حمل إبراهيم على الوعد بالاستغفار لأبيه مع شكاسته عليه وموء خلقه معه كما يؤذن بذلك قوله له : « لَنْ لَمْ تَنْتَهَ لِأَرْجُنْكَ وَأَهْرَنِ مَلِيًّا » . فقال :

(إن إبراهيم لأواه حليم) أى ابن إبراهيم لكثير المبالغة فى خشية الله والخضوع له ، صبور على الأذى والصفح عن ذلات غيره عنه .

(وما كان الله ليضل قوما بعد إذ هداهم) أى وما كان من سنن الله فى خلقه ولا من رحمته وحكمته أن يصف قوما بالضلال ويجرى عليهم أحكامه بالذم والعقاب بعد إذ هداهم إلى الإيمان وشرح صدورهم للإسلام - بقول يصدر منهم عن غير قصد أو عمل يحدث منهم باجتهاد خاطئ .

(حتى يبين لهم ما يتقون) من الأفعال والأفعال بياناً واضحاً بوحى صراحة أو دلالة .

(إن الله بكل شئ عليم) أى إنه تعالى عليم بجميع الأشياء ، ومن جعلتها حاجة الناس إلى البيان فهو يبين لهم مهمات الدين بالنص القاطع حتى لا يضل فيه اجتهدهم بأهواء أنفسهم ، ومن أجل هذا لم يؤاخذ إبراهيم فى استغفاره لأبيه قبل أن تتبين له حاله ، وكذلك لا يؤاخذ النبى والذين آمنوا بما سبق لهم من الاستغفار لوالديهم وأولى القربى منهم قبل هذا التبيين لحكم الله تعالى .

ولما منعهم من الاستغفار للمشركين ولو كانوا أولى قربى ، وذلك يستدعى التبرؤ منهم وعدم انتظار النصرة من أحد - بين أن النصرة لا يكون إلا من جهة تعالى فقال :
(إن الله له ملك السموات والأرض يحيى ويميت وما لكم من دون الله من ولى ولانصير) أى إنه تعالى مالك كل موجود ومتولى أمره فى السموات والأرض ، وهو الذى يهب الحياة بمحض قدرته ومشيبته ومقتضى سننه فى التكوين ، ويميت من يشاء حين انقضاء أجله ، وليس لكم أيها المؤمنون من يتولى أموركم ولا من ينصركم على عدوكم غير الله تعالى ، فلا تحيدوا عن هدايته فيما نهاكم عنه من الاستغفار لأولى القربى الذين هم أهل الولاية والنصرة من ذوى الأرحام ، ولا فى غير ذلك من أوامره ونواهيه .

لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ
 الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ
 رَءُوفٌ رَحِيمٌ (١١٧) وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ
 الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ
 إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا ، إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١١٨)
 يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (١١٩) .

شرح المفردات

العسرة : الشدة والضيق ، وزاغ : مال ، والرحب : السعة ، ولجأ إلى الحصن
 وغيره : لاذ إليه واعتصم به ، الرأفة : العناية بالضعيف والرفق به ، والرحمة : السعى
 في إيصال المنفعة .

المعنى الجملى

بعد أن استقصى سبحانه أحوال المتخلفين عن غزوة تبوك على النحو الذى
 سلف - عاد مرة أخرى إلى الكلام فى توبتهم جرياً على سنة القرآن الكريم
 فى تفريق الآيات فى الموضوع الواحد لأنه أفعل فى النفس وأشد تأثيراً فى القلب
 وأجدى فى تجديد الذكرى وأدنى ألا يسأم التالى لها فى الصلاة وغيرها . إلى أنه
 مناسب لما قبله من النهى عن الاستغفار للمشركين ، إذ كلُّ مما يتب منه ، وكل
 عثرة يطلب منها الصفح والعفو .

الإيضاح

(لقد تاب الله على النبی والمهاجرين والأنصار) أى لقد تفضل سبحانه وعطف
 على نبيه وأصحابه المؤمنين الصادقين من المهاجرين والأنصار فتجاوز عن هفوات

صدرت منهم فى هذه الغزوة وغيرها لبلأئهم الحسن فيها ، ولأئهم لم يصروا على شىء منها .

وقد كانت همواتهم على سبيل الطباع البشرية واجتهاد الرأى فيما لم يبينه الله .
بيانا قطعيا بحيث يعد مخالفه عاصيا ، وقد فسر ابن عباس التوبة على النبى صلى الله عليه وسلم هنا بقوله فى سياق هذه الغزوة « عَفَا اللَّهُ عَنْكَ - لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ ؟ »
أى إن التوبة كانت من اجتهاد لم يقره الله عليه إذ غيره كان خيرا منه . وتوبة المهاجرين والأنصار ، وهم خلص المؤمنين كانت من ثقافتهم فى الخروج حتى ورد الأمر الحتم والتوبيخ على التثاقل إلى الأرض ، ومنهم من كان ذنبه السماع للمنافقين فيما كانوا يبعثون من فتنة المؤمنين .

وتوبة الله على عباده توفيقهم للتوبة وقبولها منهم ، وإنما يتوبون من ذنب ، وما كل ذنب معصية لله عز وجل .

(الذين اتبعوه فى ساعة العسرة) أى الذين اتبعوه ولم يتخفوا عنه وقت الشدة والضيق ، وكانت عسرة فى الزاد إذ كان الوقت نهاية فصل الصيف الذى نفذت فيه مئونتهم من التمر وأول فصل الخريف الذى بدأ فيه إرطاب الموسم الجديد ولا يمكن حمل شىء منه ، فكان يكتفى الواحد منهم أو الاثنان بالثمرة الواحدة من التمر القديم ومنه المدود واليابس ، ومنهم من تزود بالشعير المسوس والإهالة (الشحم المذاب) الزينة المتغيرة الرائحة - وعسرة فى الماء حتى كانوا ينحرون البعير على قلة الرواحل ليعتصروا الفرث الذى فى كرشه ويبللوا به ألسنتهم - وعسرة فى الظهر (فى الإبل) حتى كان العسرة يعقبون بعيرا واحدا - وعسرة فى الزمن إذ كان فى حرارة القيظ (شدة الحر) .

قال جابر بن عبد الله رضى الله عنه فى ساعة العسرة : عسرة الظهر وعسرة الزاد وعسرة الماء ، وقال ابن عباس لعمر رضى الله عنهم : حدثنا من شأن ساعة العسرة ، فقال : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تبوك فى قيظ شديد فزلنا منزلا فأصابنا

فيه عطش شديد حتى ظننا أن رقابنا ستقطع حتى إن كان الرجل لينحر بعيره ليمصر
فرثه فيشربه ويجعل ما بقى على كبده ، فقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه : يا رسول
الله إن الله قد عودك في الدعاء خيرا فادع لنا ، فرفع يديه فلم يرجعها حتى سالت السماء
فأهطلت ثم سكنت فلتوا ما معهم ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر .

(من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم) أى إنه تاب على المؤمنين كافة من
بعد ما كاد يزيغ بعضهم عن الإيمان وهم الذين تخلفوا غير علة النفاق ، وهم الذين
وصفهم الله بأنهم عملوا عملا صالحا وآخر سيئا واعترفوا بذنوبهم ، فقبل الله توبتهم
كما ذكر فيما سلف .

(ثم تاب عليهم) هذا تكرير للتوكيد كما يقال عفا السلطان عن فلان
ثم عفا عنه ، فيدل ذلك على أنه عفو متأكد بلغ الغاية القصوى من القوة والكمال .
ثم علل قبول توبتهم بقوله :

(إنه بهم رؤوف رحيم) أى إن ربهم رؤوف رحيم بهم ، فلا يهلكهم بأن
ينزع الإيمان منهم بعد ما أنلوا في الله وأبلوا مع رسوله وصبروا في البأساء والضراء .

(وعلى الثلاثة الذين خلفوا) أى ولقد تاب الله على الثلاثة الذين خلفوا عن
الخروج إلى نبوتك مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهم المرجون لأمر الله ، وتقدم
أنهم ثلاثة : كعب بن مالك ، وهلال بن أمية ، ومرارة بن الربيع .

(حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت) أى خلفوا عن التوبة حتى شعروا
بأن الأرض قد ضاقت عليهم على رحبها وسعتها بالخلق جميعا خوفا من العقبة وجزعا
من إعراض النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين عنهم وهجرهم إياهم في المجالسة والمحادثة .
وهذا مثل للحيرة في الأمر ، كأنهم لا يجدون فيها مكانا يقرون فيه قلقا وجزعا
مما هم فيه ، فال قائلهم :

كأن فجاج الأرض وهى فسيحة على الخائف المطلوب كمة حایل
ثم ترقى واتقل من ضيق الأرض عليهم إلى ضيقهم فى أنفسهم فقال :

لعل
هكذا
يهلككم
فلا يهلككم
أمرهم

(وضاقت عليهم أنفسهم) أى وضائق أنفسهم على أنفسهم ، لما كانوا يشعرون به من ضيق صدورهم بامتلائها بأنهم والغم حتى لا تمتنع فيها لشيء من البسط والسرور ، فكانهم لا يجدون لأنفسهم مكانا ترتاح إليه وتطمئن به .
 (وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه) أى واعتقدوا أنه لا ملجأ لهم من غضب الله ورسوله ، إلا إنيته تعالى بالتوبة والاستغفار ورجاء رحمته ، وقد أعرض عنهم رسول الله الرحيم بأحبابه فلم يكونوا يستطيعون أن يطلبوا دعاءه واستغفاره - إلى أنه صلى الله عليه وسلم لا يشفع في الدنيا ولا في الآخرة إلا لمن ارتضى الله أن يشفع لهم .

(ثم تاب عليهم) أى ثم عطف عليهم وأنزل قبول توبتهم .
 (ليتوبوا) ويرجعوا إليه بعد إعراضهم عن هدايته ، واتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(إن الله هو التواب الرحيم) أى إنه تعالى كثير القبول لتوبة التائبين ، الواسع الرحمة للمحسنين ، المتفضل عليهم بضروب النعم مع استحقاقهم لأعظم أنواع العقاب .
 وكان من حديث هؤلاء الثلاثة ما حدثه كعب قال : « لما قفل رسول الله صلى الله عليه وسلم سلمت عليه فرد على كلفه صب بعد ما ذكرنى وقال : « ليت شعرى ما خلف كعبا » فقيل له ما خلفه إلا حسن برؤيه والنظر في عطفه فقال : « معاذ الله ما أعلم إلا فضلا وإسلاما ، ونهى عن كلامنا أيها الثلاثة فتذكر لنا الناس ولم يكلمنا أحد من قريب أو بعيد ، فلما مضت أربعون ليلة أمرنا أن نعتزل نساءنا ولا نقر بهن ، فلما تمت خمسون ليلة إذا أنا ببدء من ذروة سلع (جبل بالمدينة) أبشريا كعب بن مالك فخررت ساجدا ، وكنت كما وصفنى ربى (وضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم) وتتابعت البشارة فلبست ثوبى وانطلقت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا هو جالس في المسجد وحوله المسلمون فقام إلى طلحة بن عبد الله يهرول حتى صاغخى وقال : لتهنك توبة الله ، فلن أنساها لطلحة ،

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يستنير استنارة القمر ، أبشريا كعب بخير يوم مرّ عليك منذ ولدتك أمك ثم تلا علينا الآية .

وفي هذه القصة عبرة للمؤمنين تخشع لها قلوبهم وتفيض لها عبراتهم ، وقد كان الإمام أحمد لا يبيكه شيء من القرآن كما نبكيه هذه الآيات .

انظر إلى هذا وتأمل قسوة قلوب الجاهلين المفرورين الذين يقترفون الفواحش والمنكرات ويتركون الفرائض ويصرون على ما فعلوا وهم يعلمون ولا يتوبون إلى الله ولا هم يذكرون ، وإذا وعظهم الواعظ وجدهم بين جازم بالمغفرة والعفو عنه ، ومتكل على شفاعة الشافعين له ، ومنهم من يحنظ من أخبار مكفريات الذنوب مما لا أصل له في الدين ، أو له أصل يراد به تكفير الصغائر بشرط اجتناب الكبائر ، كما قال تعالى : « **إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ** » .

(يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين) أي يأيها الذين آمنوا بالله ورسوله اتقوا الله وراقبوه بأداء فرائضه واجتناب نواهيه ، وكونوا في الدنيا من أهل ولاية الله وطاعته تكونوا في الآخرة مع الصادقين في الجنة ، ولا تكونوا مع المنافقين الذين يتصلون من ذنوبهم بالكذب ويؤيدونه بالخلف .

أخرج الحاكم عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **إِنْ السَّكَذْبَ لَا يَصْلَحُ مِنْهُ جَدٌ وَلَا هَزْلٌ ، وَلَا يَعِدُ الرَّجُلُ ابْنَهُ ثُمَّ لَا يَنْجِزُ لَهُ ، اقْرَءُوا** **إِنْ شِئْتُمْ : يَأْيُهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ** » وأخرج البيهقي مرفوعا « **إِنْ الصَّدَقُ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ ، وَإِنْ الْبِرُّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ ، وَإِنْ السَّكَذْبُ يَهْدِي إِلَى الْفَجْورِ ، وَإِنْ الْفَجْورُ يَهْدِي إِلَى النَّارِ ، إِنَّهُ يُقَالُ لِلصَّادِقِ : صَدَقَ وَبَرَّ ، وَيُقَالُ لِلْكَاذِبِ : كَذَبَ وَفَجَرَ ، وَإِنْ الرَّجُلُ لَا يَصْدُقُ حَتَّى يَكْتُبَ عِنْدَ اللَّهِ صَدِّيقًا ، وَيَكْتُبُ حَتَّى يَكْتُبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَابًا** » .

ولا رخصة في السكذب إلا لضرورة من خديعة حرب ، أو إصلاح بين اثنين ، أو رجل يحدث امرأته ليرضيها أي في التجنب إليها بوصف محاسنها ورضاه عنها ، لا في مصالح الدار والعيال وغيرها .

أخرج ابن أبى شيبه وأحمد عن أسماء بنت يزيد عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « كل الكذب يكتب على ابن آدم إلا رجل كذب فى خديعة حرب أو إصلاح بين اثنين أو رجل يحدث امرأته ليرضيها » .
ولا شك أن فى المعارض ما يغنى العاقل عن الكذب كما جاء فى الحديث « إن فى المعارض لمدوحة عن الكذب » .

مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا غَمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نِيلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١٢٠) وَلَا يَنْفَقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢١) .

شرح المفردات

رغب فى الشيء : أحبه وآثره ، ورغب عنه ، كرهه : وقد جمع بينهما فى الآية .
والظما : شدة العطش . والنصب : الإعياء والتعب ، والغمص : الجوع الشديد ،
والغيظ : الغضب ، ونيل : أى أسرا وقتلا وهزيمة ، والوادي : كل منفرج بين جبال
وآكام يكون منفذا للسيل .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر عز اسمه توبته على المتخلفين الذين حسنت نياتهم ولم يصبروا على ما فعلوا وهم يعلمون - أكد هنا وجوب متابعة الرسول والغزو معه لما فيه من الأجر العظيم ، وحظر تخلف أحد عنه إلا بإذنه .

الإيضاح

(ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه) أى لا ينبغي لأهل المدينة حاضرة الإسلام ومقر الرسول صلى الله عليه وسلم ولا من حولهم من الأعراب كزينة وجهينة وأشجع وغفار وأسلم - أن يتخلفوا عن رسول الله فى غزو فى سبيل الله كما فعل بعضهم فى غزوة تبوك ، ولا فى غيره من شئون الأمة ومصالح الملة ، ولا أن يفضلوا أنفسهم على نفسه فيرغبوا فى الراحة والسلامة ولا يبذلوها فيما يبذل فيها نفسه الشريفة ، بل عليهم أن يصحبوه فى البأساء والضراء وأن يكابدوا معه الأهوال برغبة ونشاط ، علماً بأنها أعز نفس على الله وأكرمها ، فإذا تعرضت مع كرامتها للخوض فى شدة وهول وجب على سائر الأنفس أن تنهات فيما تعرضت له ولا يكثر لها أصحابها فضلاً عن أن يربثوا بأنفسهم عن متابعتها ويضنوا بها على ما سمح بنفسه عليه .

والخلاصة - إن المتخلف يفضل نفسه ويؤثرها على نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم التى لا يكمل إيمان أحد حتى يحبه أكثر من حبه لنفسه .

وفى ذلك نهى شديد عن عملهم وتوبيخ لهم عليه وتهيبج لمتابعته صلى الله عليه وسلم بألفة وحمية .

(ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة فى سبيل الله ولا يظنون موطناً يغيط الكفار ولا ينادون من عدوئنا إلا كتب لهم به عمل صالح) أى لم يكن لهم حق التخلف ، بل يجب عليهم الاتباع بسبب أن كل ما يصيبهم فى جهادهم من أذى وإن كان قليلاً كظمأ لقلة الماء ، أو نصب لبعث الشقة ، أو لقلة الظهر ، أو مجاعة لقلة الزاد ، ومن إيذاء للعدو وإن صغر كوطء أرضه الذى يعده استهانة بقوته فيغيظه أن تمسه أقدام المؤمنين أو حوافر خيولهم ، أو النيل منه بجرح أو قتل أو أسر أو هزيمة أو غنيمية - إلا كتب لهم بكل واحد مما ذكر عمل صالح يجزى عليه

بالتواب العظيم ، وما أكثر هذه الأعمال الصالحات التى تشمل كل حركة من بطشة يد أو وطأة قدم أو عروض جوع أو عطش أو نحو ذلك .

وفى الآية إيماء إلى أن من قصد خيرا كان سعيه فيه من قيام أو قعود أو مشى أو كلام أو نحو ذلك مشكورا مثابا عليه . وإلى أن المدد القادم بعد انقضاء الحرب يشارك الجيش فى الغنيمة لأن وطء ديارهم مما يغنيهم . ولقد أسهم النبي صلى الله عليه وسلم لابنى عامر وقد قدما بعد نقضى الحرب .

انقضاء

ثم علل هذا الأجر العظيم بقوله :

(إن الله لا يضيع أجر المحسنين) أى إن الله لا يدع محسنا أحسن فى عمله فأطاعه فيما أمره وانتهى عما نهاه عنه - أن يجازيه على إحسانه ويثيبه على صالح عمله ، ومن ثم كتب لمن أطاعه من أهل المدينة ومن حولهم من الأعراب الثواب على كل ما فعلوا فلم يضع لهم أجرا على عمل عملوه .

(ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون واديا إلا كتب لهم) أى كذلك شأنهم فيما ينفقون فى سبيل الله صغرا أو كبيرا ، قل أو أكثر ، وفى كل واد يقطعونه فى سيرهم غادين أو راجعين - إلا كتب لهم أجرهم على ذلك جزاء لهم على عملهم ولا يترك شيء منه أو ينسى .

(ليجزىهم الله أحسن ما كانوا يعملون) أى ليجزىهم بكتابته فى صحف أعمالهم كأحسن ما يجزىهم على خير أعمالهم التى كانوا يعملونها وهم مقيمون فى منازلهم .

وخلاصة ذلك - إنه تعالى يجزىهم بكل عمل مما ذكر جزاء أحسن من جزائهم على أعمالهم الجليلة فى غير الجهاد بالمال والنفس بأن تكون النفقة الصغيرة فيه كالنفقة الكبيرة فى غيره من أنواع المبرات ، والمشقة القليلة فيه كالمشقة الكبيرة فى عداه من الأعمال الصالحات .

وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (١٢٢) .

شرح المفردات

نفر : خرج للقتال ، ولولا : كلمة تفيد الحضي والحث على ما يدخل عليها إذا كان مستقبلا ، واللوم على تركه إذا كان ماضيا ، فإن كان مما يمكن تلافيه فربما أفاد الأمر به ، والفرقة : الجماعة الكثيرة ، والطائفة : الجماعة القليلة ، وتفقه : تكلف الفقه والفهم وتجشم مشاق تحصيلها ، وأنذره : خوفه ، وحذره : تحرز منه .

المعنى الجملى

هذه الآية جاءت متممة لأحكام الجهاد مع بيان حكم العلم والتفقه في الدين من قبل أنه وسيلة للجهاد بالحجة والبرهان ، وهو الركن الركين في الدعوة إلى الإيمان وإقامة دعائم الإسلام ، ولم يشرع جهاد السيف إلا ليكون حماية وسياجا لتلك الدعوة من أن تلعب بها أيدي المعتدين من الكافرين والمنافقين .

روى الكلبي عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : لما شدد الله على المتخلفين قالوا لا يتخلف منا أحد عن جيش أو سرية أبدا ففعلوا ذلك وبقى رسول الله صلى الله عليه وسلم وحده فنزل (وما كان المؤمنون) الآية .

الإيضاح

(وما كان المؤمنون لينفروا كافة) أى ما كان شأن المؤمنين ولا مما يطلب منهم أن ينفروا جميعا في كل سرية تخرج للجهاد ، فإنه فرض كفاية متى قام به بعض سقط

عن الباقين ، لا فرض عين على كل شخص ، وإنما يجب ذلك إذا خرج الرسول واستنفرهم للجهاد .

(فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون) أى فهلا نفر للقتال من كل فرقة كبيرة منهم كاهل بلد أو قبيلة طائفة وجماعة ليتسنى لهم : أى للمؤمنين في جملتهم التفقه في الدين ، بأن يتكلف الباقون في المدينة الفقاهة في الدين بما يتجدد نزوله على الرسول صلى الله عليه وسلم من الآيات وما يكون منه صلى الله عليه وسلم من بيانها بالقول والعمل ، فيعرف الحكم مع حكمته ، ويوضح الجمل بالعمل به ، ولينذروا قومهم الذين نفروا للقاء العدو إذا رجعوا إليهم : أى ليجعلوا أهم قصد لهم من الفقاهة إرشاد هؤلاء وتعليمهم ، وإنذارهم عاقبة الجهل وترك العمل بما علموا ، رجاء أن يخافوا الله ويحذروا عاقبة عصيانه ، وأن يكون جميع المؤمنين علماء بدينهم قادرين على نشر دعوته والحجاج عنه وبيان أسرارہ للناس لا أن يوجهوا أنظارهم إلى الرياسات والمناصب العالية والترفع عن سواد الناس وكسب المال والتشبه بالظلمة والجبارين في ملابسهم ومراكبهم ومناصبهم بعضهم بعضاً .

وفي الآية إشارة إلى وجوب التفقه في الدين والاستعداد لتعليمه في مواطن الإقامة وتفقيه الناس فيه بالمقدار الذي تصلح به حالهم فلا يجهلون الأحكام الدينية العامة التي يجب على كل مؤمن أن يتعرفها ، والناصبون أنفسهم لهذا التفقه على هذا القصد لهم عند الله من سامى المراتب ما لا يقل في الدرجة عن المجاهد بالمال والنفس في سبيل إعلاء كلمة الله والذود عن الدين والملة ، بل هم أفضل منهم في غير الحال التي يكون فيها الدفاع واجبا عينيا على كل شخص .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (١٢٣) .

المعنى الجملى

لما أمر سبحانه فيما سبق بقتال المشركين كافة - أرشدهم فى هذه الآية إلى طريق السداد فى هذا الباب ، وهو أن يبدؤوا بقتال من يليهم ثم ينتقلوا إلى الأبعد فالأبعد وهكذا ، وقد فعل النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته كذلك ، فقد حارب قومه ثم انتقل إلى غزو سائر العرب ثم إلى غزو الشام ، ولما فرغ صحابته من الشام دخلوا العراق ؛ وكذلك فى أمر الدعوة فقد قال تعالى : « وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ » ثم أمر بالدعوة العامة وقتال من يقف فى طريقها من المشركين فقال : « قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ » .

الإيضاح

(يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار) أى قاتلوا الأقرب فالأقرب إلى حوزة الإسلام ، ذاك أن القتال إنما شرع لتأمين الدعوة إلى الدين والدفاع عن أهله ، وقد كانت الدعوة موجهة إلى الأقرب فالأقرب من الكفار كما قال تعالى لرسوله : « لَتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا » .

وهذا الترتيب أولى لوجوه كثيرة : منها قبة النفقات ، والحاجة فيه إلى الدواب والآلات ، وسهولة معرفة حال الأقرب من الأسلحة والعسكر ، ولأن ترك الأقرب والاشتغال بالأبعد لا يؤمن معه من هجوم العدو على الذرارى والضعفاء ، ومن ثم كان هذا هو الطريق المتبع فى الدعوة والنفقات والصدقات وما يدار فى المجالس من شراب ونحوه ، فكان النبي صلى الله عليه وسلم يعطى من على يمينه وإن لم يكن أفضل الجالسين ثم الذى يليه ثم الذى يليه ، وقال للأعرابى الذى كان يمد يده إلى الجوانب البعيدة من المائدة « كل مما يليك » .

(وليجدوا فيكم غلظة) الغلظة (مثلثة) : الشدة والخشونة ، أى وليجدوا

فيكم جرأة وصبرا على القتال وعنفا في القتل والأسر ونحو ذلك كما قال : « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ » .

والغلاظة في زمن الحرب مما تقتضيه الطبيعة والمصلحة ، لما فيها من شدة الزجر والمنع عن القبيح .

وفي الآية إيماء إلى أنه قد يحتاج حيناً إلى الرفق واللين ، وأخرى إلى العنف والشدة ، لأن يقتصر على الغلاظة فقط فإن ذلك مما ينفر ويوجب تفرق الناس عنهم . وإنما أمروا بذلك في القتال وما يتصل بالدعوة إلى الإسلام ، للإرشاد إلى أنه يجب أن تكون حالهم في الأمور العامة مبنية على الرفق والعدل والتؤدة في المعاملة ومن ثم صار ذلك من أخص صفات المسلمين .

(واعلموا أن الله مع المتقين) أى واعلموا أن الله معكم بالمعونة والنصر إذا اتقيتموه وراعيتم أحكامه وسننه ، وابتعدتم عن التقصير في أسباب النصر والغلب من إعداد العدد المناسبة للزمان والمكان التي عناها الله بقوله (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ) ومن الثبات والصبر ، والطاعة وحسن النظام ، وترك التنازع والاختلاف ، وكثرة ذكر الله والتوكل عليه فيما وراء الأسباب والسنن المعروفة .

وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ: أَتَيْكُمُ زَادَتْهُ هُذِهِ إِيْمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيْمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (١٢٤) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ (١٢٥) أَوَّلًا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَكَّرُونَ (١٢٦) وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاهُمْ مِنْ أَحَدٍ؟ ثُمَّ انصَرَفُوا ، صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (١٢٧) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه ضروباً من مخازى المنافقين كتحلفهم عن غزوة تبوك وتعلقهم لذلك بالإيمان الفاجرة - ذكر هنا ضروباً أخرى من تلك المثالب كتهكمهم بالقرآن وتسليمهم لوإذا حين سماعه ، وهذا آخر منازل مما يبين تأثير القرآن فيهم وفي المؤمنين .

الإيضاح

(وإذا ما أنزلت سورة) أى وإذا أنزل الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم سورة من سور كتابه الكريم ، فمن المنافقين من يقول لإخوانه على سبيل الاستهزاء هذه المقالة ليثبتوا على النفاق ، أو يقول لمن يلقاه من المؤمنين مشككاً لهم : (أيكم زادته هذه) السورة (إيماناً) أى يقينا بحقية القرآن والإسلام وصدق الرسول صلى الله عليه وسلم ، أى أيكم زادته تصديقاً جازماً مقترباً بإذعان النفس وخضوعها ، وأشعرته بلزوم العمل بها لثيقته بصدق الرسول الذى أنزلت عليه .

والإيمان على هذا النحو يزيد بنزول القرآن في عهد الرسول ولاسيما من يحضر نزوله ويسمعه منه ، وكذا يزيد بسمعه من غيره في قلب المؤمن قوة إذعان ورغبة في العمل والقرب من الله .

قال تعالى مجيباً عن هذا السؤال مبيناً حالهم وحال المؤمنين فقال :

(فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون) أى فأما المؤمنون فيزيدهم نزول القرآن زيادة اليقين واطمئنان القلب ، ويزيدهم قوة في العمل به والتقرب إلى ربهم ، وهم يستبشرون بنزولها لما يرجون من خير هذه الزيادة ، بتزكية أنفسهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة .

(وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون) أى وأما الذين في قلوبهم شك وارتياب دعاهم إلى النفاق بإسرار الكفر وإظهار

الإسلام ، فزادتهم كفرا ونفاقا مضموما إلى كفرهم ونفاقهم السابق ، واستحوذ ذلك عليهم واستحكم فيهم إلى أن ماتوا على الكفر والنفاق على مقتضى سننه تعالى في تأثير الأعمال في صفات النفس وتغيير هواجس الفكر .

ثم عجب من حالهم وقد كان لهم زاجر فيما يرون فقال :

(أولايرون أنهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين ؟) أى أيجهلون هذا ويففلون عن حالهم فيما يعرض لهم عاما بعد عام من ضروب الابتلاء والاختبار التى تظهر استعداد النفوس للإيمان والكفر والفرقة بين الحق والباطل ، وينظرون إلى الآيات الدالة على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم فى كل ما أخبر به من نصر الله لمن اتبعه وخذلان أعدائه ووقوع ما أنذرهم به ، ومن إنباء الله بما فى قلوبهم وفضيحتهم بما يكتمون من أعمالهم .

(ثم لايتوبون ولاهم يذكرون) أى ثم هم مع كل هذا تمر عليهم الأعوام تلو الأعوام ولايتوبون من نفاقهم ولايتعظون بما يحل بهم من العذاب ، أفبعد هذا برهان على قلة الاستعداد للإيمان وانطفاء نور الفطرة ، والله در القائل :

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد وينكر الفم طعم الماء من سقم
وبعد أن بين حال تأثير إنزال السورة فى المنافقين وهم غائبون عن مجلس الرسول صلى الله عليه وسلم - بين حالهم وهم فى مجلسه صلى الله عليه وسلم حين نزولها واستماع تلاوته لها فقال :

(وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض) أى وإذا أنزلت سورة وهم فى المجلس تسارقوا النظر وتعاوزوا بالعيون ، على حين تخشع أبصار المؤمنين وتنحنى رءوسهم ، وتشاوروا فى الانسلاال من المجلس خفية لئلا يفتضحوا بما يظهر عليهم من سخرية وإنكار ، قائلا بعضهم لبعض :

(هل يراكم من أحد ؟) أى هل يراكم الرسول صلى الله عليه وسلم . أو المؤمنون إذا قمم من المجلس .

(ثم انصرفوا) أى ثم انصرفوا جميعا عن مجلس الوحى متسللين لوأذا كراهة منهم لسماعه وانتظارا لسنوح فرصة الغفلة عنهم ، فكلمنا لمح أحد منهم غفلة عنه انصرف .

(صرف الله قلوبهم) أى صرف الله قلوبهم عن الإيمان الصادق والاسترشاد بآيات كتابه إلى ما فى ملكوت السموات والأرض من دلائل قدرته .
وهذه الجملة : إما إخبار بذلك ، أو دعاء عليهم به ، والمآل فى هذا واحد فى كلامه تعالى .

(بأنهم قوم لا يفقهون) أى ذلك الصرف بسبب أنهم قوم ققدوا فهم الحقائق وما يترتب عليها من الأعمال ، فلا يفقهون ما يسمعون من الآيات لعدم تدبرها والتأمل فى معانيها مع موافقتها للعقل وهدايتها إلى الحق والعدل . لأنهم وطنوا أنفسهم على الإعراض عن كل ما جاء به من غير بحث ولا تأمل ، أحق هو أم باطل ، أخير هو أم شر ؟ وأنى لمثل هؤلاء - وتلك حالهم - أن يهتدوا بنزول الآيات والسور ؟ .

لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ ، بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٢٨) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ، وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (١٢٩) .

شرح المفردات

من أنفسكم : أى من جنسكم ، وعزيز : أى شاق ، والعنت : المشقة ولقاء المكروه الشديد ، والحرص : شدة الرغبة فى الحصول على مفقود ، وشدة عناية بموجود ، والرأفة : الشفقة ، والرحمة : الإحسان .

المعنى الجملى

لما أمر الله رسوله فى هذه السورة أن يبلغ الخلق تكاليف شاقة يعسر تحملها إلا على من خص بوجوه التوفيق والكرامة - ختمها بما يوجب تحملهم تلك التكاليف، فبين أن هذا الرسول منهم، فما يحصل له من عز وشرف فهو عائد إليهم، إلى أنه يشق عليه ضررهم، وتعظم رغبته فى إيصال خيرى الدنيا والآخرة إليهم فهو كالطبيب المشفق والأب الرحيم عليهم، والطبيب الحاذق ربما أقدم على علاج يصعب تحمله، والأب الرحيم ربما ركن إلى ضروب من التأديب يشق على النفس احتمالها كما قال:

فقسا ليزدجروا ومن يك حازما فَلْيَقْسُ أحيانا على من يرحم

قال أبى بن كعب رضى الله عنه: إن هاتين الآيتين آخر ما نزل من القرآن، لكن روى الشيخان عن البراء بن عازب أنه قال: آخر آية نزلت (يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ) وآخر سورة نزلت براءة، وعن ابن عباس: آخر آية نزلت (وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ) وكان بين نزولها وموته صلى الله عليه وسلم ثمانون يوما.

الإيضاح

(لقد جاءكم رسول من أنفسكم) أى لقد جاءكم أيها العرب رسول من جنسكم، والآية بمعنى قوله «هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ».

ذاك أن منته على قومه أعظم، وحجته بكتابته أنهض، وأولى قومه به قبيلته قریش ثم عشيرته الأقربون بنو هاشم وبنو المطلب، ولو لم يؤمن به وبكتابته العرب لما آمن العجم، وقد وجه دعوته إلى الأقرب فالأقرب، فأمن العرب بدعوته مباشرة، وآمن العجم بدعوة العرب، والعرب آمنوا بفهم القرآن وبيانه له صلى الله عليه وسلم بالتبليغ والعمل وبما شاهدوا من آيات الله فى شخصه.

وقد امتن الله عليه وعلى قومه بالقرآن المجيد فقال «وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ

وَلَقَوْمِكَ « أَى وَإِنَّه لشرف لك ولهم تذكرون به فى العالم وَيُدَوِّنْ لَكُمْ فى بطون الكتب والدفاتر .

وإنما قاومه أكابر قومه أُنْفَةً واستكبارا عن اتباعه ، إذ هم يرونه دونهم - إلى أن فى اتباعه إقْرَارًا بكفرهم وكفر آبائهم الذين يفاخرون بهم ، إلى أنهم لم يكونوا على ثقة من فوزه ونيلهم باتباعه مجد الدنيا وسعادة الآخرة .

(عزيز عليه ما عنتم) أى شديد عليه عنتم ولقاؤكم المكروه لأنه منكم ، فليس من الهين عليه أن تكونوا فى الدنيا أمة ذليلة يعتنقها أعداؤها بالسيطرة عليها والتحكم فيها ، ولا أن تكونوا فى الآخرة من أصحاب النار التى وقودها الناس والحجارة .

(حريص عليكم) أى حريص على اهتدائكم وصلاح شأنكم كما قال الله تعالى « وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ » .

(بالمؤمنين رءوف رحيم) أى هو شديد الرأفة والرحمة بالمؤمنين ، فكل ما يدعو إليه من العمل بشرائع الله فهو دليل على ثبوت هذه الصفات له ، وكل شاق منها كالجهاد فهو منجاة مما هو أشق منه .

وعن ابن عباس رضى الله عنه أنه قال فى قوله (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) إنه ليس من العرب قبيلة إلا وقد ولدت النبی صلى الله عليه وسلم مضرية وربيعة ويمانية - يريد أن نسبه تشعب فى جميع قبائل العرب ووطنها .

(فإن تولوا فقل حسبي الله) أى فإن تولوا وأعرضوا عن الإيمان بك والاهتداء بما جئتهم به ، فقل حسبي الله فإنه يعينك عليهم ويكفيك أمر توليهم وما يتبعه من عداوتهم وصددهم عن سبيله ، وقد بلغت وما قصرت .

(لا إله إلا هو) أى لا معبود سواه ألجأ إليه بالدعاء والإعانة ، وهو الكافي والمعين .

(عليه توكلت) أى عليه وحده توكلت ، فلا أمل لأمرى فيما أعجز عنه إلى غيره .

(وهو رب العرش العظيم) العرش مركز تدبير أمور الخلق كما قال تعالى « ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ » وعظمته بعظمة الرب الذى استوى عليه ، وعظمة الملك الكبير الذى هو مركز تدبيره ، وعظمة العرش والملك فى الملأ الأعلى وفيما دونه هى مظهر عظمة الله سبحانه وتعالى ، ودليل على أنه وحده الإله الحق الذى لا ينبغى أن يعبد غيره ولا يتوكل على سواه ، وهو المالك للعالم كله والمدير لهم .

روى أحمد والبخارى والترمذى وغيرهم عن زيد بن ثابت فى جمع القرآن وكتابته فى عهد أبى بكر أنه قال : حتى وجدت من سورة التوبة آيتين عند خزيمة الأنصارى لم أجدهما مع أحد غيره (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) إلى آخرها - يريد أنه لم يجدهما مكتوبتين عند ما جمع المکتوب فى الرقاع والأكتاف والعصب إلا عنده ، وقد كانتا محفوظتين معروفتين للكثير كما صرح بذلك فى الروايات الأخرى ، فقد أخرج ابن أبى داود فى المصاحف عن عباد بن عبد الله بن الزبير قال : أتى الحرث بن خزيمة بهاتين الآيتين من آخر براءة (لقد جاءكم رسول من أنفسكم - إلى قوله وهو رب العرش العظيم) إلى عمر فقال : من معك على هذا ؟ فقال : لا أدرى والله إلا أنى أشهد لسمعتهما من رسول الله صلى الله عليه وسلم ووعيتهما وحفظتهما ، فقال عمر : وأنا أشهد لسمعتهما من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لو كانت ثلاث آيات لجمعتهما سورة على حدة ، فانظروا سورة من القرآن فالحقوها بها ، فالحقت فى آخر براءة . وأخرج ابن جرير وابن المنذر أن رجلا من الأنصار جاء بهما عمر ، فقال عمر لا أسألك عليها بينة أبدا ، كذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرؤها .

ومن هذه الروايات يعلم أن الآيتين كانتا محفوظتين مشهورتين ، إلا أنهم اختلفوا فى موضعهما فى بعضها أنهما آخر سورة براءة بالتوقيف من النبى صلى الله عليه وسلم ، وفى بعضها أنهما وضعتا بالرأى والاجتهاد ، ولكن المعتمد هو الأول ، لأن من حفظ التوقيف حجة على من لم يحفظ .

قال الحافظ بن حجر في شرح البخاري : إن زيدا لم يكن يعتمد في جمع القرآن على علمه ولا يقتصر على حفظه ، واكتفاؤه بخزيمة وحده إنما كان لأنه لم يجدها مكتوبتين عند غيره ، وإن كانتا محفوظتين عنده وعند غيره ، وحسبك دليلا على ذلك قوله : إنهم كانوا يسمعون رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأها ، فهو صريح في أن البحث عن كتبها فقط اه .

فجملته القول إن الآيتين كانتا محفوظتين ومكتوبتين ومعروفتين لكثير من الصحابة ، وإنما اختلفوا حين الجمع في موضع كتابتهما حتى شهد من شهد أن النبي صلى الله عليه وسلم هو الذي وضعهما في آخر سورة براءة ، وفاقا لقول أبي بن كعب وهو أحد الذين تلقوا القرآن كله مرتبا عن النبي صلى الله عليه وسلم وكذا زيد بن ثابت وكان عدد المختلفين في موضعهما قليلا ، فلما كُتِبَتَا في المصاحف وافق الجميع على وضعهما هذا ، ولم يرو أي اعتراض على ذلك ممن كتبوا لأنفسهم مصاحف اعتمدوا فيها على حفظهم كابن مسعود رضي الله عنه .

سورة يونس

مكية إلا الآيات ٤٠، ٩٤، ٩٥، ٩٦ نزلت بعد سورة الإسراء وقبل سورة هود، وعدد آياتها تسع ومائة، وموضوعها يدور على إثبات أصول التوحيد وهدم الشرك وإثبات الرسالة والبعث والجزاء وما يتعلق بذلك من مقاصد الدين وأصوله، وهى موضوعات السور المكية.

ووجه مناسبتها لما قبلها أن السابقة ختمت بذكر رسالة النبي صلى الله عليه وسلم واختتمت بها هذه، وأن جلّ تلك فى أحوال المنافقين وما كانوا يقولونه وما كانوا يفعلونه حين نزول القرآن، وهذه فى أحوال الكفار وما كانوا يقولونه فى القرآن.

وليس التناسب بين السور سببا فى هذا الترتيب الذى بينهما، فكثيرا ما ترى سورتين بينهما أقوى تناسب فى موضوع الآيات، وقد فصل بينهما كما فعل بسورتى الهزرة والذهب وموضوعهما واحد، وقد يجمع بينهما تارة أخرى كما فعل بين سور الطواسين، وسور آل حاتم، وسورتى المرسلات والنبأ.

ومن الحكمة فى الفصل بين القوية التناسب فى المعانى - أنه أدنى إلى تنشيط تالى القرآن وأبعد به عن الملل وأدعى له إلى التدرج، وهذه الحكمة عينها تفرق مقاصد القرآن فى السورة الواحدة كالعقائد والأحكام العملية والحكم الأدبية والترغيب والترهيب والأمثال والقصص، والعمدة فى كل ذلك التوقيف والسماع.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (١) أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ، قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ (٢).

شرح المفردات

الكتاب : هو القرآن العظيم ، والحكيم : ذو الحكمة ، لاشتغال الكتاب عليها ،
والوحي : الإعلام الخفي لأمري بما ينبغي على غيره ، والإنذار : الإخبار بما فيه تخويف
والتبشير : الإعلام المقترن بالبشارة بحسن الجزاء ، والصدق : يكون في الأقوال
ويستعمل في الأفعال ، فيقال صدق في القتال إذا وفّاه حقه ، وكذب فيه إذا لم يفعل
ذلك ، ويطلق على الإيمان والوفاء وسائر الفضائل ، وجاء في التنزيل : مقعد صدق ،
ومدخل صدق ، ومخرج صدق ، وقدم صدق ، ويراد بالقدم هنا السابقة والتقدم
والمنزلة الرفيعة ، سحر : أى يؤثر في القلوب ويجذب النفوس فهو جار مجرى السحر ،
ومبين : ظاهر .

الإيضاح

(الر) هذه الحروف تقرأ ساكنة غير معربة هكذا : ألف . لام ، را . والأخير
منها غير مهموز ، والحكمة في مجيئها أول السورة تنبيه السامع إلى ما يتلى عليه بعدها
لأجل العناية بفهمه حتى لا يفوته شيء مما يسمع ، فهي من وادى حروف التنبيه نحو
(ألا) و(ها) الداخلة على اسم الإشارة .

(تلك آيات الكتاب الحكيم) أى تلك آيات الكتاب المحكم الذى أحكمه
الله وبينه لعباده كما قال جل شأنه : « الرَّكَابُ أَحْكَمْتُ آيَاتُهُ ثُمَّ فَصَّلْتُ مِنْ
لَدُنِّي حَكِيمٌ خَيْرٌ » ذاك أنه كتاب أحكمت معانيه ومبانيه ، وهو هادٍ
لمتدبره وواعيه .

(أكان للناس عجبا أن أوحينا إلى رجل منهم) أى عجيب من أمرهم أن يتكروا
لإنزال الوحي على رجل من جنسهم ويتخذوه أعجوبة بينهم يتفكحون بها ويستغترون
شأنها ، كأن مشاركتهم له في البشرية يمنع اختصاص الله إياه بما شاء من العلم ، وهو

بمعنى قوله تعالى حكاية عنهم « أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا » وقوله : « لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلْنَا مَلَائِكَةً » .

وهذه الشبهة التى تمسكوا بأذيالها قد سبق إليها أقوام الأنبياء قبلهم كما جاء فى قصة نوح وهود من سورة الأعراف « أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ ؟ » .

وقد يكون وجه العجب كونه من أفئدتهم من جهة المال كما جاء على لسانهم وحكاه الله عنهم « لَوْ لَا نَزَّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ » وحكى عنهم أنهم قالوا : العجب أن الله تعالى لم يجد رسولا إلا يتيم أبى طالب .

فإن كانوا قد عنوا الأول ، فهو عجب عايب لأن بعث الملك إنما يتسنى إذا كان المبعوث إليهم ملائكة كما قال تعالى منكرا عليهم ذلك « قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمُشُّونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا » .

وإن كانوا أرادوا الثانى فهو أغرب منه ، لأن مدار الاصطفاء للإيحاء هو التبريز فى إحراز الفضائل ونيل المسكرات ، وللنبي صلى الله عليه وسلم فى ذلك القدح الملقى فقد شمر من بينهم بالأمانة والصدق وحسن السمعة وبلوغ الغاية فى الكمالات ، والله در القائل :

خلقت مبرأ من كل عيب كأنك قد خلقت كما تشاء

وقال الآخر :

ولو صورت نفسك لم تزدها على ما فيك من كرم الطباع

وليس للتقدم فى حظوظ الدنيا ولا للسبق فى رياستها مدخل فى ذلك لا قبيل ولا دبير ولا قليل ولا كثير ، فليس الغنى سببا للقرب والزنى عند الله كما قال تعالى : « وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرَّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى » .

(أن أنذر الناس) أى أوحينا إليه بأن أنذر الناس كافة وأعلمهم بالتوحيد والبعث وسائر مقاصد الدين مع التخويف بعاقبة ما هم فيه من كفر وضلال .

(وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم) أى وبشر الذين آمنوا بما أوحيناه إليك بأن لهم أعمالا صالحة استوجبوا بها الثواب منه تعالى ، ومنزلة رفيعة نالوها بصدق القول وحسن النية .

(قال الكافرون إن هذا السحر مبين) أى فلما أتاهم بوحى الله وتلاوه عليهم قال المنكرون لتوحيد الله ورسالة رسوله: إن هذا الذى جاء به محمد لسحر مبين أى ظاهر واضح يبين لكم أنه مبطل فيما يدعيه .

وجعلوه سحرا لأنه خارق للعادة فى تأثيره فى القلوب وجذبه النفوس إلى الإيمان به واحتقار الحياة ولذاتها فى سبيل الله .

وخلاصة ذلك — إنه كلام مزخرف حسن الظاهر لكنه واضح البطلان فى الحقيقة .

وقد كذبوا فى تسميته سحرا ، لأن السحر ما يكون بأسباب خفية يتعلمها بعض الناس من بعض إما بالحيل والشعوذة ، وإما باستخدام خواص طبيعية علمية مجهولة للجواهر ، وإما بتأثير قوى النفس وتوجيه الإرادة ، وجميعها من الأمور التى يشترك فيها الكثير من العارفين بها ، والقرآن ليس بسحر يؤثر بالعلم والصناعة ، بل هو أقوال مشتملة على آداب عالية وتشريع حكيم فيه مصلحة للناس . معجز فى أسلوبه ونظمه ومعانيه ، أتى على لسان محمد صلى الله عليه وسلم ليبلغه للناس ، ولم يكن ليقدر على شيء من مثله ، وبهذا ثبت أنه نبي من عند الله ، وأن ما جاء به وحى من لدنه .

إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ، مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ، ذَلِكَمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٣) إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

بِالْقِسْطِ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٤) .

شرح المفردات

الخلق : لغة التقدير ، واليوم : لغة الوقت الذى يحده حدث يحدث فيه وإن كان ألوف السنين من أيام هذه الأرض الفلكية التى وجدت بعد خلق الليل والنهار ، والعرش : مركز التدبير ولا نعلم كنهه ولا صفته ، والتدبير : النظر فى أديار الأمور وعواقبها انتقع على الوجه المحمود ، وتدبير الأمر ، أو القول : هو التفكير فيما وراءه وما يراد منه وينتهى إليه ، والقسط : العدل ، والحميم : الماء الشديد الحرارة .

المعنى الجملى

بعد أن افتتح سبحانه السورة بذكر آيات الكتاب ، وأنكر على الناس عجبهم أنه يوحى إلى رجل منهم ، يبشرهم على الأعمال الصالحة بالثواب ، وينذرهم على الكفر والمعاصى بالعقاب - قفى على ذلك بذكر أمرين :

(١) إثبات أن لهذا العالم إلها قادرا نافذ الحكم بالأمر والنهى يفعل ما يشاء وهو العليم الخبير .

(٢) إثبات البعث بعد الموت والجزاء على الأعمال من ثواب وعقاب وهما اللذان أخبر بهما الأنبياء .

الإيضاح

(إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الأمر) أى إن ربكم هو الله الذى خلق العوالم السماوية التى فوقكم ، وهذه الأرض التى تعيشون على ظهرها فى ستة أزمنة قد تمّ فى كل زمن منها طور من

أطوارها وقدرها بمقادير أرادها ، ثم استوى على عرشه الذى جعله مركز هذا التدبير لهذا الملك العظيم ، استواء يليق بعظمته وجلاله ، يدبر أمر ملكه بما اقتضاه علمه من النظام واقتضته حكمته من الأحكام ، ولا يستنكر من رب هذا الخلق المدبر لأمر عباده أن يفيض ما شاء من علمه على من اصطفى من خلقه ، ما يهديهم به لما فيه كمالهم من عبادته وشكره ، وبذلك تصلح أنفسهم وتظهر قلوبهم وتستنير أفئدتهم لتتم لهم بذلك الحياة السعيدة فى الدنيا والنعم المقيم فى الآخرة ، كما لا يستنكر أن هذا الوحي منه عز وجل ؛ إذ هو من كمال تقديره وتدبيره ولا يقدر عليه سواه .

(ما من شفيع إلا من بعد إذنه) أى لا يوجد شفيع يشفع لأحد عنده تعالى إلا من بعد إذنه ، والآية بمعنى قوله سبحانه « مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ » وقد جاء فى كتابه تعالى أنه لا يشفع أحد عنده بإذنه إلا من ارتضاه للشفاعة كما قال : « يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا » ومن أذن له بالشفاعة لا يشفع إلا لمن رضى له الرحمن لإيمانه وصالح عمله كما قال : « وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى » .

وفى هذا إيماء لِدَحْضِ العقيدة التى كان يعتقدونها مشركو العرب ومقلدوهم من أهل الكتب من أن الأصنام والأوثان وعبادة المقربين من الملائكة والبشر يشفعون لهم عند الله بما يدفع عنهم الضرر ويجلب لهم النفع كما حكى الله عن عبدة الأصنام قولهم « مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى » .

وفى هذه العقيدة حجة عليهم إذ يقال لهم - إنكم إذا كنتم تؤمنون بأن لله شفعاء من أوليائه وعبادة المقربين يشفعون لكم بما يقربكم إليه زلفى . وهو قول عليه تعالى بغير علم - فما بالكم تنكرون وتعجبون أن يوحى إلى من يشاء ويصطفى من عباده من يعلمهم ما يهديهم إلى العمل الموصل إلى السعادة والهادى إلى طريق الرشاد . (ذلكم الله ربكم فاعبدوه) أى ذلكم الموصوف بالخلق والتقدير والحكمة والتدبير والتصرف فى أمر الشفاعة يأذن بها لمن يشاء - هو الله ربكم المتولى شئونكم

فاعبدوه وحده ولا تشركوا به شيئاً ولا معه أحداً لا فى شفاعته ولا غيرها ، فالشفعاء لا يملكون لكم من دونه نفعاً ولا ضرراً ، وإنما هو الذى يملك ذلك وحده وهو قد هداكم إلى أسباب النفع والضرر الكسبية بالعقول والمشاعر التى سخرها لكم ، وإلى أسباب النفع والضرر الغيبية بوحيه ، فلا تطلبوا نفعاً ولا ضرراً إلا بالأسباب التى سخرها لكم ، وما تعجزون عنه أو تجهلون أسبابه ، فادعوه فيه تعالى وحده يحصل لكم ما فيه ترغبون أو يدفع عنكم ما تكرهون .

(أفلا تذكرون) أى أنجهلون هذا الحق الواضح فلا تتذكرون أن الذى خلق السموات والأرض ، وانفرد بتدبير هذا العالم هو الذى يجب أن يعبد ولا يعبد سواه ، وذلك هو مقتضى الفطرة ، والإعراض عنه غفلة يجب التنبيه إليها .

وفى ذلك إيماء إلى أنه لا ينبغي أن نوجه وجوهنا شطر قبور الأولياء والصالحين ونشد الرحال إلى من بعد منهم وتتقرب إليهم بالتذورات ونطوف بهم كما يطوف الحاج بيت الله الحرام ، داعين متضرعين خاشعين نطلب منهم ما عجزنا عنه بكسبتنا من دفع ضرر أو جلب نفع ، وكيف لا نتذكر هذه الآيات وأمثالها التى تجعل العبادة خاصة به تعالى ، وما الدعاء إلا مخ العبادة وروحها وأجل مظاهرها كما جاء فى الأثر « الدعاء مخ العبادة » .

ولكن أكثر العلماء وجمهرة الناس يتأولون هذه العبادة ويسمونها توسلاً واستشفاعاً ، والأسماء لا تغير من قيمة الحقائق شيئاً ، فذلك بعينه هو ما كان يدعيه المشركون وأهل الكتاب « مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى » .

(إليه مرجعكم جميعاً) أى إلى ربكم وحده دون غيره من معبوداتكم وشفعائكم وأوليائكم ترجعون جميعاً بعد الموت ، وفناء هذا العالم الذى أتم فيه لا يتخلف منكم أحد .

(وعد الله حقاً) أى وعد الله ذلك وعداً حقاً لا خاف فيه .

(إنه يبدأ الخلق ثم يعيده) أى إن شأنه تعالى أن يبدأ الخلق وينشئه حين

يؤين . ثم يعيده فى نشأة أخرى بعد انحلاله وفنائه .

وقد اتفق العلماء جميعا ماديههم وروحيههم على أن الأرض وجميع الأجرام السماوية قد وجدت بعد أن لم تكن ، وإن كانوا لا يزالون يبحثون عن كيفية تلك النشأة والقوة المتصرفة في أصل مادتها .

وهم جميعا متفقون على توقع خراب هذه الأرض والكواكب المرتبطة بها في هذا النظام الشمسى الجامع لها بأن تصيب الأرض قارعة من الأجرام السماوية تبسها بسا فتكون هباء منبثا .

وها هو ذا قد حصل البدء بالفعل والإعادة أهون من البدء ، فمن قدر على البدء يكون أقدر على الإعادة كما قال في سورة الروم : « وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ » .

ومما يقرب ذلك أن علماء الطبيعة أثبتوا أن هذه الأجساد الحية في التحلل وتجدد دائمين فما ينحل منها ويبخر في الهواء أو يموت في داخل الجسم ثم يخرج منه تحل محله مواد حية جديدة حتى يفتى جسد كل حيوان في سنين قليلة ويتجدد غيره .

(ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط) أى إنه تعالى يعيدهم لأجل جزائهم بالعدل ، فيعطى كل عامل حقه من الثواب الذى جعله لعمله ، وهذا المعنى قد جاء في آيات كثيرة كقوله : « وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا » وقوله : « وَقَضَىٰ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ » .

والعدل في الأمور كلها مما يتطلبه الإيمان كما قال : « لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ » وقال : « قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ » .

والجزاء بالعدل لا يمنع أن يزيدهم ربهم شيئا من فضله ويضاعف لهم كما وعد على ذلك في آيات أخرى ، منها قوله : « لِيُؤَفِّيَهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّنْ فَضْلِهِ » وقوله : « لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ » .

(والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون) أى إن

الكافرين لهم من الجزاء شراب من حميم يقطع أمعاءهم وعذاب شديد. الألم بسبب ما كانوا يعملون من أعمال الكفر المستمرة إلى الموت كدعاء غير الله من الأوثان والأصنام ، وسائر المعاصى التى يزينها لهم الشيطان ويصد هم بها عن الإيمان .

وتعليل الرجوع إليه تعالى بأنه لجزاء المؤمنين الصالحين ، بيان منه بأنه المقصود بالذات ، إذ هو الذى يكون به منتهى كمال الارتقاء البشرى للذين زكوا أنفسهم وطهروا قلوبهم وأخبتوا إلى ربهم فيلقى من عمل الصالحات من النعيم المادى ماهو خال من الشوائب التى تحاططه فى نعيم الدنيا ، ومن النعيم الروحى (وهو رضوان الله الأكبر) مما لا يعلم كنهه فى هذه الحياة أحد كما قال «فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ» وجاء فى الحديث القدسى «أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر» رواه البخارى .

وأما جزاء الكافرين الظالمين لأنفسهم وللناس على تدسيثهم لأنفسهم بالكفر والخطايا ، فليس من المقاصد التى اقتضتها الحكمة الإلهية فى خلق الإنسان ، ولكنها مقتضى العدل ومقتضى مشيئته تعالى فى ارتباط الأسباب بالمسببات والعدل بالمعوللات .

هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ، مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥) إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ (٦) .

شرح المفردات

الضوء والنور : بمعنى واحد لغة ، والضوء أقوى من النور استعمالاً بدليل هذه الآية ، وقيل الضوء لما كان من ذاته كالشمس والنار ، والنور لما كان مكتسباً من

غيره ، ويدل على ذلك قوله : « وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا »
والسراج : نوره من ذاته ، والضياء والضوء ما أضاء لك ، وشعاع الشمس مركب
من ألوان النور السبعة التى ترى فى فوس السحاب فهو سبعة أضواء وقد كشف ترقى
العلوم الفلكية عن ذلك ، وكان الناس يجهلون عصر التنزيل ، والتقدير : جعل الشيء
أو الأشياء على مقادير مخصوصة فى الذات أو الصفات أو الزمان أو المكان كما قال :
« وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا » وقال : « وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ
كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ » والمنازل : واحدها منزل ، وهو مكان النزول ، وهى ثمانية
وعشرون منزلا معروفة لدى العرب بأسمائها .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه الآيات الدالة على وجوده ، وهو خلق السموات والأرض
على ذلك النظام الحكيم - ذكر هنا أنواعا من آياته الكونية الدالة على ذلك وعلى أنه
خلقها على غاية من الإحكام والإيقن ، وهو تفصيل لما تقدم وبيان له على وجه بديع
وأسلوب عجيب .

الإيضاح

(هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا) أى إن ربكم الذى خلق السموات
والأرض - هو الذى جعل الشمس مضيئة نهارا والقمر منيرا ليلا ، ودبر أمور معاشهم
هذا التدبير البديع . فأجدر به وأولى أن يدبر أمور معادهم بإرسال الرسل
وإنزال الكتب .

(وقدره منازل) أى وقدر سير القمر فى فلكه منازل ينزل فى كل ليلة
فى واحد منها لا يجاوزها ولا يقصر دونها وهى ثمانية وعشرون يرى القمر فيها بالآبصار ،
وليلة أو ليلتان يحتجب فيهما فلا يرى .

(لتعلموا عدد السنين والحساب) أى لتعلموا بما ذكر من صفة النيرين وتقدير

المنازل حساب الأوقات من الأشهر والأيام لضبط عباداتكم ومعاملاتكم المالية والمدنية، ولولا هذا النظام المشاهد لتعذر العلم بذلك على الأميين من أهل البدو والحضر؛ إذ حساب السنين والشهور الشمسية لا يعلم إلا بالدراسة، ومن ثم جعل الشارع الحكيم الصوم والحج وعدة الطلاق بالحساب القمرى الذى يعرفه كل أحد بالمشاهدة، ولعبادتى الصيام والحج حكمة أخرى وهى دورانها فى جميع فصول السنة فيعبد المسلمون ربهم فى جميع الأوقات من حارة وباردة ومعتدلة.

وقد حث الشارع على الانتفاع بالحساب الشمسى بنحو قوله: «الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ» وقوله: «وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتَيْنِ فَمَحْوَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِّينَ وَالْحِسَابَ».

(ما خلق الله ذلك إلا بالحق) أى ما خلق الله الشمس ذات ضياء تفيض أشعتها على كواكبها التابعة لها فتنبعث الحرارة فى جميع الأحياء، وبها يبصر الناس جميع المبصرات ويقومون بأمور معاشهم وسائر شؤونهم، وما خلق القمر ذا نور مستمر من الشمس تنتفع به السيارة فى سيرهم، وقدره منازل يعرف بها الناس السنين والشهور، ما خلق ذلك إلا مقترنا بالحق الذى تقتضيه الحكمة والمنفعة لحياة الخلق ونظام معاشهم فلا عبث فيه ولا خلل، فكيف يعقل بعد هذا أن يخلق هذا الإنسان ويعلمه البيان ويعطيه من كمال الاستعداد ما لم يعط غيره، ثم يتركه بعد ذلك سدى يموت ويفنى ولا يعود ويبعث، لتجزى كل نفس بما كسبت فيجزى المتقون بصالح أعمالهم، والمشركون والظالمون الجرمون بكفرهم وجرائمهم كما قال تعالى: «أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ. مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ؟».

(نفصل الآيات لقوم يعلمون) أى نبين الدلائل من حكم الخلق على رسولنا مفصلة متنوعة من كونية وعقلية لقوم يعلمون دلالة الأدلة ويميزون بين الحق والباطل باستعمال عقولهم فى فهم هذه الآيات فيجزمون بأن من خلق النيرين على هذا النظام البديع لا يمكن أن يخلق الإنسان سدى.

(إن في اختلاف الليل والنهار) أى فى حدودهما وتعاقبهما بمجىء كل منهما خِلْفَةً لِلْآخَرِ وفى طولها وقصرهما على حسب اختلاف مواقع الأرض من الشمس ، ومالهما من نظام دقيق على حسب حركة الشمس اليومية والسنوية ، وفى طبيعة كل منهما وما يصلح فيه من نوم وسكون وعمل دنيوى ودينى .

(وما خلق الله فى السموات والأرض) من أحوال الجماد والنبات والحيوان ، ويدخل فى ذلك أحوال الرعود والبروق والسحاب والأمطار ، وأحوال البحار من مدّ وجزر ، وأحوال المعادن العجيبة فى تركيبها وأوضاعها المختلفة إلى نحو ذلك مما ذكر فى علم المواليد الثلاثة .

(لآيات لقوم يتقون) أى لدلائل عظيمة على وجود الصانع ووحدانيته وحكمته فى الإبداع والإيقان وفى تشريع العقائد والأحكام - لقوم يتقون مخالفة سننه تعالى فى التكوين وسننه فى التشريع ، فله سنن فى حفظ الصحة من خالفها مرض ، وله سنن فى تركية الأنفس ، فمن خالفها وأفسدها بارتكاب الفواحش ماظهر منها وما بطن جُوزَى على ذلك فى الآخرة أشد الجزاء .

إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ (٧) أُولَئِكَ مَاوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨)
إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ ، تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٩) دَعَوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ، وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠).

شرح المفردات

قال فى المصباح : رجوته : أمثله أو أردته قال تعالى : «لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا» أى لا يريدونه ، ويستعمل بمعنى الخوف لأن الراجى يخاف ألا يدرك مايرجاه ، وقيل

الرجاء مجرد التوقع الذى يشمل مايسر ومايسوء ، واللقاء : الاستقبال والمواجهة ، والاطمئنان : سكون النفس إلى الشئ وارتياحها به ، والنأوى : الملجأ الذى يأوى إليه المتعب أو الخائف أو المحتاج من مكان آمن أو إنسان نافع ، وقد أطلق على الجنة فى ثلاث آيات ، وعلى النار فى بضع عشرة آية ، والدعوى : الدعاء ، وهو للناس النداء والطلب المعتاد بينهم فى دائرة الأسباب المستخرة لهم ، والله هو دعاؤه وسؤاله والرغبة فيما عنده مع الشعور بالحاجة إليه والضراعة له فيما لا يقدر عليه أحد من خلقه من دفع ضرر أو جلب نفع ، سبحانه : أى تنزيها لك وتقديسا ، والتحية : التكرمة بقولهم : حياك الله ، أى أطال عمرك ، والسلام : السلامة من كل مكروه .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر الأدلة على وجوده تعالى من خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار ، وأثبت بذلك البعث والجزاء على الأعمال يوم العرض والحساب - قفى على هذا بذكر حال من كفر به وأعرض عن البينات الدالة عليه ، وحال المؤمنين الذين عملوا الصالحات موقنين بقاء ربهم - ثم ذكر جزاء كل من الفريقين .

الإيضاح

(إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها) أى إن الذين لا يتوقعون لقاءنا فى الآخرة للحساب والجزاء على الأعمال لإنكارهم للبعث ، ورضوا بالحياة الدنيا بدلا من الآخرة فقصروا كل همهم من الحياة على الحصول على أغراضهم منها ، وسكنت نفوسهم إلى شهواتها ولذاتها .

(والذين هم عن آياتنا غافلون) فلا يتدبرون منها ما نزل على رسولنا وما حوته من عبر ومواعظ ومعاد وحكم ، ولا يتفكرون فى صفائف السكون وما فيها من حكمته وسننه فى الخلق ، وبهذا شاركوا الفريق الأول فى الشغل بالدنيا عن الآخرة ، ومن ثم لم يستعدوا لحسابنا وما يعقبه من نعيم مقيم ، وعذاب أليم .

(أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون) أى أولئك الذين سلف ذكرهم مأواهم في الآخرة النار جزاء ما اجترحوا من السيئات طوال حياتهم ، فهم قد دنسوا أنفسهم بشرور الوثنية وظلمات الشهوات الحيوانية فلم يعد لنور الحق والخير مكان فيها ، ومن ثم لا يجدون ملجأ بعد هول الحساب إلا جهنم دار العذاب .
وبعد أن أبان جزاء الفريق الأول كان من الواضح أن تستشرف نفس القارىء والسامع إلى جزاء الفريق الثانى فقال :

(إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم) أى إن الذين آمنوا بما يجب الإيمان به ولم يغفوا عن الآيات التى غفل عنها الغافلون ورجوا لقاء ربهم وخافوا حسابه وعقابه ، يهديهم ربهم بسبب إيمانهم صراطه المستقيم فى كل ما يعملون وينتهى ذلك بهم إلى دخول الجنة التى أعدها لعباده المحبتين .
وفى هذا إيماء إلى أن الإيمان والعمل الصالح هما سبب الهداية والفوز برفع الدرجات والوصول إلى أقصى الغايات .

(تجرى من تحتهم الأنهار فى جنات النعيم) أى تجرى من تحت غرفهم فى الجنات ومن تحت الأشجار .

(دعواهم فيها سبحانهك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين) أى إنهم يبدءون كل دعاء وثناء عليه تعالى يناجونه به بهذه الكلمة (سبحانهك اللهم) أى تنزيها وتقديسا لك يا الله ، وأن تحيتهم فيها كلمة (سلام) الدالة على السلامة من كل مكروه ، وهى تحية المؤمنين فى الدنيا .

وهذه التحية تكون منه عز وجل حين لقائه كما قال فى سورة الأحزاب : « تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَكْفُوتُ سَلَامٌ » ومن الملائكة لهم عند دخول الجنة كما قال : « وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ » وتكون منهم بعضهم لبعض كما قال : « لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا » .

وإن آخر كل حال من أحوالهم من دعاء ينادون به ربهم ، ومطلب يطلبونه من إحسانه وكرمه (الحمد لله رب العالمين) كما أنه أول ثناء عليه حين دخولها كما قال « وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَّبِعُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ » كما أنه آخر كلام الملائكة كما قال : « وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ ، وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » .

فعلى كل مؤمن أن يستعد لها بتزكية نفسه وترقية روحه ، ويعلم أنه لن يكون أهلاً لها إلا بالعمل ومجاهدة النفس والهوى ، لا بالتوسلات للأولياء والتمنى لشفاعتهم كما قال تعالى : « لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا » .

وروى عن أبى بن كعب مرفوعاً إلى النبى صلى الله عليه وسلم « إن أهل الجنة إذا قالوا - سبحانك اللهم ، أتاها ما يشتهون » وكذلك روى مثله عن بعض التابعين - فالكلمة إذا علامة بين أهل الجنة وخدمهم على إحضار الطعام وغيره فإذا أكلوا حمدوا الله تعالى .

ولو يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١) وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢) .

شرح المفردات

تعجيل الشيء: تقديمه على أوانه المقدر له أو الموعد به ، والاستعجال به: طلب التعجيل له ، والعجلة من غرائز الإنسان كما قال تعالى « خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ » فاستعجاله بالخير لشدة حرصه على منافعه وقلة صبره عنها ، واستعجاله بالضر لا يكون من دأبه بل بسبب عارض كالغضب والجهل والعناد والاستهزاء والتعجيز ، أو للنجاة مما هو شر منه ، وقضاء الأجل انتهاؤه، ونذر: نترك ، والطغيان: مجاوزة الحد في الشر من كفر وظلم وعدوان ، والعمه: التردد والتحير في الأمر أو في الشر ، ومر: أى مضى في طريقته التي كان عليها من الكفر بربه .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر تعجب القوم من تخصيص محمد بالنبوة ، وأزال هذا التعجب بقوله « أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ » ثم ذكر دلائل التوحيد والبعث والجزاء - ذكر هنا جوابا عن شبهة كانوا يقولونها أبدا وهى : اللهم إن كان ما يقول محمد حقا في ادعاء الرسالة فأمطر علينا حجارة من السماء .

وخلاصة الجواب أنه لا مصلحة لهم في إيصال الشر إليهم إذ لو أوصله إليهم لما تواروا وهلكوا ، ولا صلاح في إيمانهم ، فربما آمنوا بعد ذلك أو خرج من صلبهم من يكون مؤمنا .

الإيضاح

(ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير لقضى إليهم أجلهم) أى ولو يعجل الله للناس إجابة دعائهم في الشر وفيما عليهم فيه مضرة في نفس أو مال كاستعجال مشركى مكة رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعذاب الذى أنذرهم نزوله بهم كما حكى الله عنهم من نحو قوله « وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَاتُ » وقوله « وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ ، وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ

وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً « وقوله » وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ .

كاستعجالهم بالخير الذى يطلبونه بدعاء الله أو بعلاج الأسباب التى يظنون أنها قد تأتى به قبل أوانه لقضى أجلهم قبل وقته الطبيعى كما هلك الذين كذبوا الرسل واستعجلوهم بالعذاب من قبلهم .

ولكن الله أرحم بهم من أنفسهم ، وقد بعث محمدا صلى الله عليه وسلم بالهداية الدائمة ، وقضى بأن يؤمن به قومه العرب ويحملوا دينهم إلى العجم ، وأنه يعاقب المعاندين من قومه فى الدنيا بما فيه تأديب لهم كما بين ذلك بقوله « قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْزِعْكُمْ عَنْهُمْ » ويؤخر عذاب سائر الكافرين إلى يوم القيامة ، ولم يقض بإهلاكهم واستئصالهم ، بل يذرهم إلى نهاية آجالهم كما قال :

(فذر الذين لا يرجون لقاءنا فى طغيانهم يعمهون) أى فترك الذين لا يرجون لقاءنا ممن تقدم ذكرهم فيما هم فيه من طغيان فى الكفر والتكذيب ، يترددون فيه متحيرين لا يهتدون سبيلا للخروج منه ، ولا نمجّل لهم العذاب فى الدنيا بالاستئصال حتى يأتى أمر الله فى جماعتهم بنصر رسوله صلى الله عليه وسلم عليهم ، وفى أفرادهم بقتل بعضهم وموت بعض ، ومأواهم النار وبئس القرار ، إلا من تاب وآمن منهم ، وقد يكون المراد : ولو يعجل الله للناس الشر الذى يستعجلونه بما يقترفونه من ظلم وفساد فى الأرض لأهلكهم كما جاء فى قوله « وَلَوْ يُؤْخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهِمْ هَآئِنَ دَآئِبَةٍ » ومن هذا دعاؤهم على أنفسهم حين اليأس ، ودعاء بعضهم على بعض حين الغضب كما قال « وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ » أى وما دعاء الكافرين بربهم أو بنعمه فيما يخالف شرعه وسنته فى خلقه إلا فى ضياع لا يستجيبه الله لهم لحلمه عليهم ورحمته بهم .

(وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً) أى إن الإنسان إذا أصابه من الضر ما يشعر فيه بشدة ألم أو خطر على نفسه كغرق ومسغبة وداء عضال دعانا متجاً في كشفه عند اضطجاعه لجنبه أو قعوده في كسر بيته أو قيامه على قدميه حائراً في أمره ، ولا ينسى حاجته إلى رحمة ربه ما دام يشعر بمس الضر ويعلم من نفسه العجز عن النجاة منه ، وقدم من هذه الحالات الثلاث ما يكون الإنسان أشد عجزاً وشعوره بالحاجة إلى ربه أقوى ثم التي تليها ثم التي تليها .

(فلما كشفنا عنه ضره مرَّ كأن لم يدعنا إلى ضرِّه) أى فلما كشفنا عنه ضره الذى دعانا إليه حال شعوره بعجزه عن كشفه بنفسه أو بغيره من الأسباب - مرَّ ومضى في طريقه التي كان عليها من الغفلة عن ربه والكفر به كأن الحال لم تتغير ولم يدعنا إلى شيء ولم نكشف عنه ضراً .

(كذلك زين للمشرفين ما كانوا يعملون) أى مثل هذا الطريق من معرفة الله والإخلاص في دعائه وحده في الشدة ، ونسيانته والكفر به بعد كشفها ، زين للمشركين من طغاة مكة وغيرهم ما كانوا يعملون من أعمال الشرك ، حتى بلغ من عنادهم للرسول صلى الله عليه وسلم واستهزائهم بما أنذرهم من عذاب أن استعجلوه به فقالوا اللهم ربنا أمطر علينا حجارة من السماء .

وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونََ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَاجَاءَهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ
وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (١٣) ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ
خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (٢٤) .

شرح المفردات

القرون : الأمم ، واحدها قرن ، وهم القوم المقترنون في زمن واحد ، وجاء في الحديث الشريف « خير القرون قرني ثم الذين يلونهم » ، والخلائف : واحدها خليفة ، وهو من يخلف غيره في شيء ، وننظر : نشاهد ونرى .

المعنى الجملى

بعد أن أبان سبحانه فى الآيات السالفة أنهم كانوا يتعجلون العذاب ، وذكر أنه لاصلاح لهم فى إجابة دعائهم ، ثم ذكر أنهم كاذبون فى هذا الطلب إذ لو نزل بهم الضر جأروا وتضرعوا إلى الله فى كشفه وإزالته .

بين هنا ما يجرى مجرى التهديد ، وهو أنه تعالى قد ينزل بهم عذاب الاستئصال كما حدث للأمم قبلهم حتى يكون ذلك رادعا لهم وزاجرا عن هذا الطلب .

الايضاح

(ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا) الخطاب إلى قوم النبی صلى الله عليه وسلم وأهل وطنه مكة . أى لقد أهلكنا كثيرا من الأمم قبلكم بسبب ظلمهم . والآية بمعنى قوله « وَرَأَيْتَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا » وهلاك الله للأمم بالظلم ضربان :

(١) ضرب بعذاب الاستئصال للأقوام الذين بعث الله تعالى فيهم رسلا لهدائهم بالإيمان والعمل الصالح كقوم نوح وعاد وثمود ، فعاندوا الرسل فأنزروهم عاقبة الجحود والعناد بعد مجيئهم بالآيات الدالة على صدقهم .

(٢) ضرب بعذاب هو مقتضى سنته تعالى فى نظم الاجتماع البشرى ، فالظلم مثلا سبب لفساد العمران وضعف الأمم ، ولاستيلاء القوية على الضعيفة كما قال « وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ » - وهو إما ظلم الأفراد لأنفسهم بالفسوق والإسراف فى الشهوات المضعفة للأبدان المفسدة للأخلاق وإما ظلم الحكام الذى يفسد بأس الأمة ويهين من قوتها .

(وجاءتهم رسلهم بالبينات) أى أهلكناهم لما ظلموا بالكذيب وقد جاءتهم رسلهم بالبينات الدالة على صدقهم .

(وما كانوا ليؤمنوا) أى وما كان من شأنهم ولا من مقتضى استعدادهم أن يؤمنوا لأنهم قد مروا على الكفر وصار ديدنهم حب الشهوات واللذات من الجاه والرياسة والظلم والفسق والفجور .

(كذلك نجزي القوم المجرمين) أى ومثل هذا العذاب الشديد وهو الاستئصال نجزيه لكل قوم مجرمين .

وفي هذا وعيد شديد لأهل مكة على تكذيبهم الرسول صلوات الله وسلامه عليه .
(ثم جعلناكم خلائف فى الأرض من بعدهم) أى ثم جعلناكم خلائف فى الأرض من بعد أولئك الأقوام بما آتيناكم فى هذا الدين من أسباب الملك والحكم إذ فى شريعتكم ما به سعادة الأمة فى دينها ودنياها .

وفى الآية بشارة لهذه الأمة بأنها ستخلفهم فى الأرض إذا آمنت به واتبعت النور الذى أنزل معه كما قال « وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ » ولقد صدق الله وعده فلما ملك الأكلسة والقيصرة والقراعنة وكثير من الأمم غيرها .

(لننظر كيف تعملون) أى لنرى ماذا تعملون فى خلافتكم فنجازيكم به بمقتضى سنتنا فيمن قبلكم ، كما قال « لَيَبْلُوَنَّكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا » وجاء فى الأثر « إن الدنيا خضرة حلوة ، وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون » وقال قتادة : صدق الله ربنا ما جعلنا خلفاء إلا لينظر إلى أعمالنا ، فأروا الله من أعمالكم خيرا بالليل أو النهار .

وفى ذلك إيماء إلى أن هذه الخلافة منوطة بالأعمال حتى لا يغتروا بما سينالونه ويظنوا أنه باق لهم وأنهم يتفلقون من سننه تعالى فى الظالمين .

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا آتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي

إِنْ أَتَّبَعُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَىٰٓ اِنِّىٓ اَخَافُ اِنْ عَصَيْتُ رَبِّىٓ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيْمٍ
 (١٥) قُلْ لَوْ شَاءَ اللّٰهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَیْكُمْ وَلَا اَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِیْكُمْ
 مُّحَرَّمًا مِّنْ قَبْلِهِٗ اَفَلَا تَعْقِلُوْنَ (١٦) فَمَنْ اَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرٰى عَلَى اللّٰهِ كَذِبًا
 اَوْ كَذَّبَ بِآیَاتِهِٗ اِنَّهٗ لَا یُفْلِحُ الْمُجْرِمُوْنَ (١٧) .

المعنى الجملى

بعد أن بدأ الله السورة بذكر الكتاب الحكيم وإنكار المشركين الوحى على رجل منهم ثم أقام الحجة على الوحى والتوحيد والبعث بخلق العالم علويه وسفليه ، وبطبيعة الإنسان وتاريخه وغيرائه - أعد هذا الكلام فى شأن الكتاب نفسه وتنفيذ ما اقترحه المشركون على الرسول صلى الله عليه وسلم بشأنه ، وحجته البالغة عليهم فى كونه وحياً من عند الله تعالى .

الايضاح

(وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا انت بقرآن غير هذا أو بدله) أى وإذا تتلى على هؤلاء المشركين آيات الكتاب الذى أنزل إليك حال كونها بارزات فى أعلى أسلوب من البيان دالات على الحق ساطعات الحجة والبرهان ، قالوا لمن يتلوها عليهم ، وهو الرسول الله صلى الله عليه وسلم : انت بقرآن غير هذا أو بدله ، أى انت بكتاب آخر نقرؤه ليس فيه ما لانؤمن به من البعث والجزاء على الأعمال ، ولا ما نكرهه من ذم آلهتنا والوعيد على عبادتها ، أو بدله بأن تجعل بدل الآية المشتملة على الوعيد آية أخرى ، ولم يكن مقصدهم من هذا إلا أن يختبروا حاله بطلانته بالإتيان بقرآن غيره فى جملة ما بلغهم من سوره فى أسلوبها ونظمها ، أو بالتصرف فيه بالتغيير والتبديل لما يكرهونه منه من تحقير آلهتهم وتكفير آبائهم

حتى إذا فعل هذا أو ذاك كانت دعواه أنه كلام الله أوحاه إليه دعوى لا يعول عليها، وكان فصارى أمره أنه امتاز عنهم بنوع من البيان خفيت عليهم أسباب معرفته، ولم يكن يوحى من الله كما يزعمه .

(قل ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى) أى قل لهم أيها الرسول إنه ليس من شأنى ولا مما تجيزه لى رسالتى أن أبدله من تلقاء نفسى ومحض رأى وخالص اجتهدى .

(إن اتبع إلا ما يوحى إلى) أى ما أتبع فيه إلا تبليغ ما يوحى إلى والاهتداء بهديه ، فإن بدل الله منه شيئاً بنسخه بلغت عنه ما أراد ، وما على إلا البلاغ .

ثم علل ما سبق بقوله :

(إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم) أى إني أخاف إن فعلت أى عصيان ، عذاب يوم عظيم الشأن، ألا وهو يوم القيامة، فكيف بى إذا عصيته بتبديل كلامه اتباعاً لأهوائكم .

ثم لقنه الله الجواب عن الشق الأول وهو التغير لأهميته بقوله :

(قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به) يقال دريته ودريت به ، أى علمته ، أى لو شاء الله ألا أتلو عليكم هذا القرآن ما تلوته عليكم ، فإنما أتلوه بأمره وتنفيذ مشيئته ، ولو شاء ألا يعلمكم به بإرسالى إليكم لما أرسنى ولما أدراكم به ، ولكنه شاء أن يمتن عليكم بهذا العلم النافع لتهتدوا به وتكونوا بهدائه خلائف فى الأرض وهذا لن يكون بكتاب آخر كما قال « وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » فهو قد أنزله عالماً بأن فيه كل ما يحتاج إليه البشر من الهداية وأسباب السعادة .

(فقد أثبت فيكم عمراً من قبله) أى فقد مكث بين ظهرانيكم عمراً طويلاً من قبله وهو أربعون سنة لم أتل عليكم سورة من مثله ولا آية تشبه آياته لا فى العلم والهداية ولا فى البيان والبراعة .

(أَفَلَا تَعْقِلُونَ) أى أفلا نعتقون أن من عاش أربعين سنة لم يقرأ كتاباً ولم يقن من أحد علماً ولم يتقلد ديناً ولم يمارس أساليب البيان وأفانين الكلام من شعر ولا نثر ولا خطابة ولا نغز ولا علم ولا حكمة لا يمكنه أن يأتى بمثل هذا القرآن المعجز لكم ولجميع الدارسين لكتب الأديان ، فكيف تقترحون على أن آتى بقرآن غيره . وقد كان أكثر أنبياء بنى إسرائيل قبل نبوتهم على شيء من العلم كما قال تعالى فى موسى « وَكَمْا بَنَغْ أَشْدَهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا » وقال فى يحيى « وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا » .

(فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته) أى إن شر أنواع الظلم والإجرام فى البشر شيثان :

(١) افتراء الكذب على الله ، وهو ما اقترحوه عليه بيجودهم .

(٢) التكذيب بآيات الله وهو ما اجترحوه من السيئات .

وقد نعتت عليكم الثانى منهما ، فكيف أَرْضَى لِنَفْسِى الأول وهو شر منه ، وإنَّ أهم أغراض رسالتى الإصلاح ، ولأجله أحتمل المشاق ، وأقبل فى سبيله كل إرهاق ، فلا فائدة لى فى هذا الإجرام .

(إنه لا يفلح المجرمون) أى لا يفوز الذين اجترموا الكفر فى الدنيا إذا لقوا ربهم ولا ينالون الفلاح .

وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتَنْتَبِهُونَ اللَّهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٨) .

المعنى الجملى

بعد أن بين في الآيات السابقة أنهم طلبوا منه أحد أمرين : إما الإتيان بقرآن غير هذا أو تبديله ؛ لأن فيه نبذا لآلهم وطعنا فيها وتسفيها لآرائهم في عبادتها - نعى عليهم هنا عبادة الأصنام وبين لهم حقارة شأنها إذ لا تستطيع نفعاً ولا ضراً ، فكيف يليق بالعاقل أن يعبدوها من دون الله ، ويجعل لها الشفاعة عنده وليس لديهم برهان على ما يدعون ، سبحانه وتعالى عما يشركون .

الايضاح

(ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم) أى ويعبدون ما لا يملك لهم ضراً ولا نفعاً من الأصنام وغيرها حال كونهم متجاوزين ما يجب من عبادته تعالى وحده ، فهم يعبدونه ويعبدون معه غيره كما قال تعالى « وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ » .

وفي الآية إيماء إلى أن سبب عبادتها وضلالتهم فيما يدعون هو اعتقادهم فيها القدرة على الضر والنفع ، فرد عليهم خطأهم بأنه وحده هو القادر على نفع من يعبدونه وضر من يشرك بعبادته غيره في الدنيا والآخرة .

وقد دل تاريخ البشر في كل طور من أطواره على أن كل ما عبده من دون الله من صنم أو وثن فإنما عبده لاعتقاده فيه القدرة على النفع والضر بسلطان له فوق الأسباب المعروفة لعبادته للأوثان المتخذة من الحجارة أو الخشب والأصنام المصنوعة من المعادن والحجارة أو غير المصنوعة كاللات ، وهى صخرة كانت بالطائف يلت عليها السويق ثم عظمّت حتى عُبِدَتْ ، أو الأشجار كالْعُزَّى معبودة قریش .

(ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله) أى ويقولون في سبب عبادتهم لهم مع اعتقادهم أنهم لا يملكون الضر والنفع بأنفسهم إيمانهم بأن الرب الخالق هو الله تعالى ،

وهؤلاء شفعاء عنده ونحن إنما نعبدكم ونعظم هياكلكم ونطيبها بالعطر ونقدم لهم النذور ونهلّ لهم عند ذبح القرابين بذكر أسمائهم وبدعائهم والاستغاثة بهم ، لأنهم يشفعون لنا عند الله ويقرّبونا إليه زلفى ويدفعون بجمعهم عنا البلاء ويعطوننا ما نطلب من النعماء .

وقد روى عكرمة أن النضر بن الحارث قال : إذا كان يوم القيامة شنت لي اللات والعزى .

فأساس عقيدة الشرك أن جميع ما يطلب من الله لا بد أن يكون بواسطة المقربين عنده ، إذ هم لا يمكنهم التقرب من الله والخطوة عنده بأنفسهم لأنها مدنسة بالمعاصى - أما الموحدون فيعتقدون أنه يجب على العاصى أن يتوجه إلى الله وحده نابيا إليه طالبا مغفرته ورحمته .

(قل أتنبئون الله بما لا يعلم فى السموات ولا فى الأرض) أى قل لهم أيها الرسول مبينا لهم كذبهم ومنكرا عليهم افتراءهم على ربهم: أنخبرون الله بشيء لا يعلمه من أمر هؤلاء الشفعاء فى السموات من ملائكته وفى الأرض من خواص خلقه ، ولو كان له شفعاء يشفعون لكم عنده لكان أعلم بهم منكم إذ لا يخفى عليه شيء فى الأرض ولا فى السماء ، فهذا هؤلاء لا وجود لهم عنده ، وأنكم قد اتخذتم ذلك قياسا على ما ترونه من الوساطة عند الملوك الجاهلين بأمور رعيّتهم والعاجزين عن تنفيذ مشيئتهم فيهم ، بدون وساطة الوزراء وذوى المكانة فيهم .

وبهذا ثبت بطلان الشرك فى الألوهية وهو عبادة غير الله مهما يكن المعبود ، وبطلان الشرك فى الربوبية بادعاء وساطة المعبود فى الخلق والتدبير ، أو الشفاعة عند الله إذ ليس لمعبود بذاته ولا بتأثير خاص له عند خالقه يحمله على نفع من شاء ولا ضرر من شاء أو كشف ضرره كما يعتقد عبادة الأولياء من البشر إلى اليوم ، فكل ذلك للرب وحده ولا يعلم إلا بوحيه ، فادعاء ذلك لغيره كذب لامستند له . وفى هذا حجة أيما حجة على زوار الأضرحة والقبور الذين يقولون : إن هؤلاء

الأولياء أحياء عند ربهم كالشهداء، فهم يضرون وينفعون لا كالأصنام، وقد جهلوا أن الله يقول للنصارى إن المسيح لا يملك لهم ضرا ولا نفعاً بعبادتهم نه مع ما آتاه من المعجزات، وأظن أن الأمر لا يبلغ بهم أن يجعلوا السيد البدوى وسيدنا الحسين والسيدة زينب أفضل عند الله ولا أقرب منه، وقد أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يخبر الناس بأنه لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعاً « قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ » .

(سبحانه وتعالى عما يشركون) أى تنزه ربنا وعلا علوا كبيرا عما يشركون به من الشفعاء والوسطاء وما يفترونه عليه من أن لأحد من خلقه وساطة عنده وشفاعة لديه تقرب إليه زلفى، ففي هذا تحقير مقام الربوبية والألوهية وتشبيه الرب بعبده من الملوك الجاهلين .

وفى هذا إيماء إلى أن شئون الرب وسائر ما فى عالم الغيب لا يعلم إلا بخبر الوحى، ومن ذلك اتخاذ الشفعاء والوسطاء عنده، فيكون كفرا صراحا .

وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٩) .

المعنى الجملى

بعد أن أقام الأدلة على فساد عبادة الأصنام، وبين سبب هذه العبادة - ذكر هنا بيان ما كان عليه الناس من الوحدة فى الدين وما صاروا إليه من الاختلاف والفرقة فيه .

الايضاح

(وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلَفوا) أى إن الناس جميعا كانوا أمة واحدة على فطرة الإسلام والتوحيد ثم اختلفوا فى الأديان، وإلى ذلك الإشارة

بقوله عليه السلام « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » .

فبعث الله فيهم النبيين والمرسلين لهدايتهم وإزالة الاختلاف بكتاب الله ووحيه، ثم اختلفوا فى الكتاب أيضا بغيا بينهم واتباعا لأهوائهم .

(ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم فيما فيه يختلفون) أى ولولا كلمة حق سبقت من ربك فى جعل الجزاء العام فى الآخرة لعجله لهم فى الدنيا بإهلاك المبطلين المعتدين .

وفى الآية وعيد شديد على اختلاف الناس المؤدى إلى العدوان والشقاق ، ولا سيما الاختلاف فى الكتاب الذى أنزل لإزالة الشقاق .

وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَاتَّظَرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظَرِينَ (٢٠) .

المعنى الجملى

بعد أن حكى سبحانه عن المشركين إنكارهم للوحى إلى بشر مثلهم ورد عليهم مقاتلتهم بالحجج التى تثبت بطلان شركهم وإنكارهم للبعث ، ثم حكى عنهم مطالبة الرسول صلى الله عليه وسلم بالإتيان بقرآن غير هذا الذى يدل فى نظمه وأسلوبه وعلومه وهدايته على أنه وحى من كلام الله - حكى عنهم فى هذه الآية الاحتجاج على إنكار نبوته بعدم إنزال آية كونية غير القرآن مع ما فيه من الآيات العلمية والعقلية الدالة على النبوة والرسالة ثم رد على ذلك .

الإيضاح

(ويقولون لولا أنزل عليه آية من ربه) أى قالوا مرارا وتكرارا ولا يزالون يقولون: هلا أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم آية كونية كآيات الأنبياء الذين يحدثنا

عنهم كنوح وشعيب وهود ، وقد جاء هذا الاقتراح هنا مجملا وأجاب عنه جوابا مجملا لأن كلا منهما سبق مفصلا في سور أخرى كقوله في سورة الفرقان « وَقَالُوا مَا هَذَا الرَّسُولُ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمَشْيُ فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا . أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا » وحكى عنهم أنهم طالبوه بواحدة من بضع آيات وعلّقوا إيمانهم على إجابة مطلبهم فقال : « وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا . أَوْ تَكُونُ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا . أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتَى بِنَا إِلَهِهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا . أَوْ يَكُونُ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرَفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُوهُ » .

فلقنه الله الرد عليهم بقوله : « وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ » أى وما صرفنا من إرسال الآيات التى اقترحوها إلا تكذيب الأولين كعاد وثمود بها ، وأنها لو أرسلت لكذبوا بها تكذيب أولئك واستوجبوا عذاب الاستئصال كما مضت بذلك سنتنا ، وقد قضينا ألا نستأصلهم لأنهم أمة خاتم النبيين الباقية وأنه هو رحمة للعالمين ، وفيهم من يؤمن أو يولد له من يؤمن ، وقد آتى الله رسوله صلى الله عليه وسلم آيات علمية وكونية ولكنه لم يجعلها حجة على رسالته ولا أمره بالتحدى بها ، بل كانت لضرورات استدعتها كاستجابة بعض أدعيته صلى الله عليه وسلم كشفاء المرضى وإشباع العدد الكثير من الطعام القليل فى غزوة بدر وغزوة تبوك ، وتسخير الله السحاب لإسقاء المسلمين ، وتثبيت أقدامهم التى كانت تسيخ فى الرمل ببدر .

وعلى الجملة فحجة النبي صلى الله عليه وسلم على نبوته هى كتابه المعجز بهدايته وعلمومه .
 روى الشيخان والترمذى عن أبى هريرة مرفوعا « ما من نبى إلا وقد أعطى

من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذى أوتيته وحيا أوحاه الله إلى فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة ..

(قل إنما الغيب لله) أى إن ما اقترحتموه وزعمتم أنه من لوازم النبوة وعلقتم إيمانكم بنزوله من الغيب الذى لا يعلمه إلا الله ولا علم لى به ، فإن كان قدر إنزال آية على فهو يعلم وقتها وينزلها فيه ، ولا أعلم إلا ما أوحاه إلى .

(فانتظروا إني معكم من المنتظرين) لما يفعله الله بى وبكم ، فقد اجترأتم على جحود الآيات واقتراح غيرها ، والآية بمعنى قوله : « قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَىٰ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ » وقد جاء تفسير ما ينتظره وينتظرونه منه فى قوله فى آخر هذه السورة « قُلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ ، قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ » .

وفى الآية إنذار بما سيحل بهم من العذاب بخذلانهم ونصر الرسل عليهم فى الدنيا وما وراءها من عذاب الآخرة .

وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ
فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ، إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ (٢١)
هُوَ الَّذِى يُسِيرُ كُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ
بَرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ
مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ
أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٢٢) فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ
يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى

أَنفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٣) .

شرح المفردات

أصل الذوق : إدراك الطعم بالفم ، ويستعمل فى إدراك الأشياء المعنوية كالرحمة والنعمة والعذاب والنقمة ، والمكر : التدبير الخفى الذى يفضى بالمكور به إلى ما لا يتوقعه ، ومكره تعالى تدبيره الذى يخفى على الناس بإقامة سننه وإتمام حكمه فى نظام العالم ، وكله عدل وحق ، فإن ساء الناس سموه شرا ، وإن كان جزاء عدلا ، والربل هنا : الكرام الكاتبون من الملائكة ، والتسيير : جعل الشيء أو الشخص يسير بتسخيره تعالى أو إعطائه ما يسير عليه من دابة أو سفينة ، والفلك : السفينة أو السفن واحد وجمع ، والطيب : من كل شيء ما يوافق الفرض والمنفعة ، يقال رزق طيب ونفس طيبة وشجرة طيبة ، والعاصف : الذى يعصف الأشياء ويكسرها ، يقال ربح عاصف وعاصفة ، وأحيط به هلك كما يحيط العدو بعدوه فيسُدُّ عليه سبل النجاة ، والبغى : ما زاد على القصد والاعتدال ، من بغى الجرح إذا زاد حتى ترمى إلى الفساد .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر عز اسمه أن القوم طلبوا من الرسول صلى الله عليه وسلم آية أخرى سوى القرآن ، وذكر جوابا عن هذا بأنه مما لا يملك ذلك لأن هذا من الغيب الذى استأثر الله بعلومه ، قفى على ذلك هنا بجواب آخر ، وهو أن أولئك المشركين لا يفتنمون بالآيات إذا رأوها بأعينهم ، بل يكابرون حسهم ولا يؤمنون ، إذ من عاداتهم اللجاج والعناد ، فكثيرا ما جاءتهم الآيات الكونية الدالة على وحدانية الله فى أفعاله ثم هم يمتكرون فيها ولا تزيدهم إلا ضللا .

الإيضاح

(وإذا أذقنا الناس رحمة من بعد ضراء مستهم إذا لهم مكر في آياتنا) أى وإذا رزقنا المشركين بالله فرجا بعد كرب ورخاء بعد شدة أصابتهم ، بادروا إلى المكر وأسرعوا بالمفاجأة به في مقام الشكر ، فإذا كانت الرحمة مطرا أحيا الأرض وأنبت الزرع ودرّ به اللبن بعد جرب وقحط أهلك الحرث والنسل ، نسبوا ذلك إلى الكواكب أو الأصنام ، وإذا كانت نجاة من هلكة وأعوزهم معرفة عللها وأسبابها عللوها بالمصادفات ، وإذا كان سببها دعاء نبي أنكروا إكرام الله له ، وتأنييده بها كما فعل فرعون وقومه عقب آيات موسى وكما فعل مشركو مكة إثر القحط الذى أصابهم بدعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم رفع عنهم بدعائه عليه الصلاة والسلام فزادهم ذلك إلّا كفرا وجحودا . روى البخارى ومسلم عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أن قريشا لما استعصوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا عليهم بسنين كسنى سيدنا يوسف فأصابهم قحط وجهد حتى أكلوا العظام والميتة من الجهد وحتى جعل أحدهم يرى ما بينه وبين السماء كهيئة الدخان من الجوع ، فأنزل الله تعالى « فَأَرْسَلْنَا يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُحَانٍ مُّبِينٍ ، يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ » فجاء أبو سفيان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا محمد إنك جئت تأمرنا بصلة الرحم ، وإن قومك قد هلكوا فادع الله لهم ، فدعا لهم فكشف الله عنهم العذاب ومطروا فعادوا إلى حالهم ومكرهم الأول يطعنون في آيات الله ويعادون رسوله صلى الله عليه وسلم ويكذبونه .

(قل الله أسرع مكرًا) أى قل لهم : إن الله أسرع منكم مكرًا ، فهو قد دبر عقابكم وهو موقعه بكم قبل أن تدبروا كيف تعملون في إطفاء نور الإسلام ، وقد سبق في تديره لأموال العالم وتقديره للجزء على الأعمال قبل وقوعها أن يعاقبكم على مكركم في الدنيا قبل الآخرة ، وهو عليم بما تفعلون لا تخفى عليه خافية .

(إن رسلنا يكتبون ماتمكرون) أى إن الحفظة من الملائكة الذين وكلهم الله بإحصاء أعمال الناس وكتبها للحساب عليها فى الآخرة يكتبون ماتمكرون به .

وفى ذلك تنبيه إلى أن مادبروا ليس بخافٍ عليه تعالى ، وإلى أن انتقامه واقع بهم لا محالة .
وعلىنا أن نعتقد بأن الملائكة تكتب الأعمال كتابة غيبية لم يكلفنا الله تعالى بمعرفة صفتها ، وإنما كلفنا أن نؤمن بأن له نظاما حكيميا فى إحصاء أعمالنا لأجل أن نراقبه فيها فنستزم الحق والعدل والخير ونجتنب أضدادها .

ثم ضرب مثلا من أبلغ أمثال القرآن ليظهر حالهم ويتضح به ما هم عليه فقال :
(هو الذى يسيركم فى البر والبحر) أى إنه تعالى هو الذى وهبكم القدرة على السير فى البر وسخر لكم الإبل والدواب ، وفى البحر بما سخر لكم من السفن التى تجرى فى البحر والقطر التجارية والسيارات ، وفى الهواء بالطائرات التى تسير فى الجو .

(حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أُنجيتنا من هذه ل نكونن من الشاكرين) أى حتى إذا كنتم فى الفلك التى سخرناها لكم وجرت بمن فيها بسبب ريح مواتية لهم فى جهة سيرهم ، وفرحوا بما هم فيه من راحة وانتعاش وتمتع بمنظره الجميل وهوائه العليل - جاءت ريح شديدة قوية فاضطرب البحر وتموج سطحه كله فتتقاهم من جميع الجوانب والنواحي بتأثير الريح ، واعتقدوا أنهم هالكون لا محالة بإحاطة الموج بهم ، فبينما يهبط الريح العاصف بهم فى لجج البحر حتى كأنهم سقطوا فى هاوية إذا به يثب بهم إلى أعلى كأنهم فى قمة الجبل الشاهق - فإذا ما نزلت بهم نذر العذاب وتقطعت بهم الأسباب دعوا الله مخلصين له الذين ليكشف عنهم ما حل بهم ولا يتوجهون معه إلى ولى ولا شفيع ممن كانوا يتوسلون بهم إليه حال الرخاء . وقد صمموا العزيمة على طاعته وقالوا ربنا لئن

أننجيتنا من هذه التهلكة لتكون من جماعة الشاكرين ، ولا تتوجه في تفريج كربنا وقضاء حاجتنا إلى وثن ولا صنم ، ولا إلى ولي ولا نبي .

وفي الآية إيماء إلى أن الناس جيلوا على الرجوع إلى الله حين الشدائد ، ولكن من لا يحصى عددهم من المسلمين في هذا العصر لا يدعون حين أشد الأوقات حرجا إلا الميتين من الأولياء والصالحين ، كاسيد البدوى والرفاعى والدسوقى والتبولى وأبى سريع وغيرهم ويتناول ذلك لهم بعض العلماء ويسمونه توسلا أو نحو ذلك .

قال السيد حسن صديق الهندى فى تفسيره «فتح الرحمن» : فإعجابنا لما حدث فى الإسلام من طوائف يعتقدون فى الأموات ، فإذا عرضت لهم فى البحر مثل هذه الحالة دعوا الأموات ولم يخلصوا لله كما فعله المشركون كما تواتر ذلك إلينا وترا يحصل به القطع . فانظر هداك الله ما فعلت هذه الاعتقادات الشيطانية وأين وصل بها أهلها وإلى أين رعى بهم الشيطان ؟ وكيف اقتادهم وتسלט عليهم حتى انقادوا له انقيادا ما كان يطمع فى مثله ولا فى بعضه من عباد الأصنام « إِنَّا لِلّٰهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ » اهـ .

وفال الألوسى فى تفسيره : وأنت خير بأن الناس اليوم إذا اعتراهم أمر خطير وخطب جسيم فى بر أو بحر دعوا من لا يضر ولا ينفع ، ولا يرى ولا يسمع ، فمنهم من يستغيث بأحد الأئمة . ومنهم من يضرع إلى شيخ من مشايخ الأمة ، ولا ترى فيهم أحدا يخص مولاه بتضرعه ودعاه ، ولا يكاد يمر له ببال أنه لو دعا الله تعالى وحده ينجو من هاتيك الأحوال ، فبالله تعالى عليك قل لى : أى القرينين أهدى سبيلا ، وأى الداعيين أقوم قبلا ، وإلى الله المشتكى من زمان عصفت فيه ريح الجهالة ، وتلاطمت أمواج الضلالة ، واتخذت الاستعانة بغير الله للنجاة ذريعة ، وخرقت سفينة الشريعة اهـ .

(فلما أنجاهم إذا هم يبنفون فى الأرض بغير الحق) أى فلما أنجاهم مما نزل بهم من الشدة والكربة فاجئوا الناس فى الأرض التى يعيشون فيها بالبنى عليهم والظلم لهم مع الإمعان فى ذلك والإصرار عليه .

وفى قوله : بغير الحق - تأكيد للواقع وتذكير بقبحه وسوء حال أهله ، أولبيان أنه بغير حق عندهم أيضا بأن يكون ظلما ظاهرا لا يخفى على أحد قبحه كما جاء فى قوله : « وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ » .

وبعد أن حكى المثل خاطب البغاة فى أى مكان كانوا وفى أى زمان وجدوا منها واعظا فقال :

(يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا) أى يأبىها الغافلون عن أنفسكم أما كفاكم بغيا على المستضعفين منكم اغترارا بقوتكم وكبريائكم ، إنما بغيكم فى الحقيقة على أنفسكم لأن عاقبة وبأله عتدة إليكم ، وإنما تتمتعون ببغيكم متاع الحياة الدنيا الزائلة وهى تنقضى سريعا ، والعقاب باق ، وأقله توبيخ الضمير والوجدان .

(ثم إنا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون) أى ثم إنكم ترجعون إلينا بعد هذا التمتع القليل فننبئكم بما كنتم تعملون من البغى والظلم والتمتع بالباطل ونجازيكم به . وفى الآية إيماء إلى أن البغى مجزى عليه فى الدنيا والآخرة . أما فى الدنيا فلقوله : إنما بغيكم على أنفسكم ، ولما جاء فى الحديث الذى رواه الإمام أحمد والبخارى « ما من ذنب يعجل الله لصاحبه العقوبة فى الدنيا مع ما يدخر له فى الآخرة من البغى وقطيعة الرحم » ، والذى رواه أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « ثلاث هن رواجع على أهلها : السكر والنكث والبغى ، ثم تلا : (يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم) - (ولا يحقيق السكر السيئ إلا بأهله) - (ومن نكث فإنما ينكث على نفسه) » .

وأما فى الآخرة فكفى دلالة على ذلك ما أفادته الآية من التهديد والوعيد .
والخلاصة - إن البغى وهو أشنع أنواع الظلم يرجع على صاحبه - لما يولد من العداوة والبغضاء بين الأفراد ويوقد نيران الفتن والثورات فى الشعوب ، انظر إلى من يبغى على مثله تجده قد خلق له عدوا أو أعداء ممن يبغى عليهم .

ولا شك أن وجود الأعداء ضرب من العقوبة فهم يقتضون لأنفسهم منه بكل الوسائل التى يقدرُونَ عليها - وإن هم لم يفعلوا ذلك فإنه يرى فى أعينهم من أنواع

الحق والغضب ما لا يخفى عليه فيتأجج قلبه حسرة وندامة على ما فعل ، ويود أن لو لم يكن قد خلق لنفسه هذه الخوازات والضعفان المتغلغلة فى النفوس .

إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازِيدَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبِ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢٤) .

المعنى الجملى

لما كان سبب بغى الناس فى هذه الدنيا هو إفراطهم فى حبها والتمتع بزيتها - ضرب لذلك مثلاً يصرف العاقل عن الغرور بها ويرشده إلى الاعتدال فى طلبها والكف عن التوسل فى الحصول على لذاتها بالبغى والظلم والفساد فى الأرض - فشبه حال الدنيا وقد أُنبتت بنعيمها وزيتها وافتتن الناس بها بعد أن تمسكوا من الاستمتاع بها ، ثم أسرع ذلك النعيم فى التقضى وانصرم غيب إقباله واغترار الناس به ، بحال ما على الأرض من أنواع النبات يسوق الله إليها المطر فيبتف بعضه على بعض وتصبح بهجة للناظرين ثم لا تلبث أن تنزل بها فجأة جائحة تستأصلها وتجعلها حطاماً كأن لم تكن بالأمس .

الايضاح

(إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ) أى إنما صفة الحياة فى صورتها ومآكلها كصفة ماء نزل من السماء

فأنبتت به الأرض أزواجا شتى من النبات تشابكت واختلط بعضها ببعض على كثرتها واختلاف ألوانها وأنواعها من أصناف شتى تكفى الناس فى أقواتهم ومراعى أنعامهم . (حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها) أى حتى كانت الأرض بها فى خضرتها السندسية وألوان أزهارها المختلفة كمروس حليت بالذهب والجواهر والحلل المختلفة الألوان ذات البهاء والبهجة ، وازينت بها فى ليلة زفافها ، وظن أهلها أنهم قادرون على التمتع بثمراتها متمكنون من ادخار غلاتها . (أتانا أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس) أى نزل بها فى تلك الحال أمرنا المقدر لهلاكها فجاءتها جائحة وضرب زرعها بعاهة كجراد أو صقيع شديد أو ريح سموم ليلا وهم نائمون ، أو نهارا وهم غافلون فجعلناها كالأرض المحصودة التى قطعت واستؤصل زرعها ولم يبق منه شيء ، أو كأنها لم تنبت ولم تكن زروعها نضرة بالأمس .

وجاء هذا المعنى فى قوله : « أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ . أَوْ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا نَهْيًا وَهُمْ يُلْعَبُونَ » .

(كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون) أى كهذا المثل الواضح الذى يمثل حال الدنيا وغرور الناس بها مع سرعة زوالها وتعلق الآمال بها - نفصل الآيات الدالة على حقيقة التوحيد وأصول التشريع والآداب والمواظظ وتهذيب الأخلاق . وكل ما فيه صلاح للناس فى معاشهم ومعادهم لمن يستعمل عقله ويزن أعماله بموازين الحكمة .

وقد غفل الناس عن الهداية بهذه الآيات وأمثلها . وقد اهتدى بها الشعب العربى نخرج من خرافة شركه إلى نور التوحيد والعلم والحضارة . ثم اهتدى بدعوته الملايين من الشعوب الأخرى فشاركوه فى السعادة والنعم ، ولم يكن للمسلمين الآن حظ منها إلا التمتع بحسن ترتيبها فى بعض المواسم والمآتم ولم يخطر لهم ببال أن يتدبروا معانيها وأن يهتدوا بهديها - وهم لو فعلوا ذلك لعلموا أن كل ما يشكو منه الناس من

العداوات القومية والحروب الدولية والردائل النفسية . والشقاء الذى عمت جبرئومته البشر ، إنما سببه التنافس فى متاع هذه الحياة ، ولو التزموا القصد والاعتدال فى مطالبهم منها وصرفوا همهم فى قوة الدولة وإعلاء كلمة الله والاستعداد للآخرة لسعدوا فى الدارين ونالوا رضا الله فى الحالين .

وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٢٥)
لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ
أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٦) وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ
سَيِّئَةٍ يَمْشِيهَا وَتَرَهَّقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ حَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ
وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا
خَالِدُونَ (٢٧) .

شرح المفردات

دار السلام : هى الجنة ، والسلام : السلامة من جميع الشوائب والنقائص والأكدار ، ورهقه : غشيه وغلب عليه حتى غطاه وحجبه ، وقوله : « وَلَا تَرَهَّقْنِي مِنْ أَمْرِي غُصْرًا » أى لا تكلفنى ما يشق على ويعسر ، والقتر : الدخان الساطع من الشواء والخطب ، وكذا كل غبرة فيها سواد ، والعاصم : المانع .

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه غرور المشركين الجاهلين بمتاع الدنيا وضرب لهم الأمثال على ذلك - قفى على هذا بالترغيب فى الآخرة ووصف حال الحسين والحسينين فيها فقال :

الإيضاح

(والله يدعو إلى دار السلام) أى ذلك الإيثار لمتاع الدنيا والغرور بها هو ما يدعو إليه الشيطان ، فيوقع متبعيه فى جهنم دار النكال والوبال ، والله يدعو عباده إلى دار السلام ، إذ يأمرهم بما يوصل إليها .

(ويهذى من يشاء إلى صراط مستقيم) أى ويهذى من يشاء إلى الطريق الموصول إليها بلا تعويق ، لأنه طريق مستقيم لا عوج فيه وهو الإسلام : عقائده وفضائله وأحكامه .

وأصل الهداية الدلالة بلطف ، وهى إما بالتشريع ببيانه وتفصيله للناس عامة ، وإما بالتوفيق للسير على سنن الدين والاستقامة عليه ، وهى خاصة بالمستعدين للعمل به ، ومن ثم قيدها بالمشيئة .

(للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) أى للذين أحسنوا أعمالهم فى الدنيا الثوبة الحسنى : أى التى تزيد فى الحسن على إحسانهم وهى مضاعفتها بعشرة أمثالها أو أكثر وجاء هذا المعنى فى قوله : « لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى » أى ولهم زيادة على هذه الحسنى فوق ما يستحقون على أعمالهم بعد مضاعفتها . وقد ورد من طرق عدة أن هذه الزيادة هى النظر إلى وجه الله الكريم وذلك هو أعلى مراتب الكمال الروحى الذى لا يصل إليه إلا المحسنون العارفون فى الآخرة .

(ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة) أى ولا يغشى وجوههم شيء مما يغشى الكفرة من الغبرة التى فيها سواد ولا أثر هوان ولا كسوف بال .

(أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون) أى أولئك الذين هذه صفتهم هم أصحاب الجنة وسكانها وهم ساكنون فيها أبداً فهى لا تبديد فيها فوا زوال نعيمهم ولا هم بمخرجين منها فتغصص عليهم لذاتهم .

(والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها) أى والذين عملوا السيئات فى الدنيا فعصوا الله فيها وكفروا به وبرسوله صلى الله عليه وسلم ، جزاء سيئة من عملهم السيء الذى عملوه فى الدنيا بمثلها من عقاب الله فى الآخرة جزاء وفاقا ، ولايزادون على ما يستحقونه من العذاب شيئا .

(وترهقهم ذلة) أى تغشاهم ذلة الفضيحة وكسوف الخزى بما يظهره حسابهم من شرك وظلم وزور وفجور .

(ما لهم من الله من عاصم) أى ما لهم من الله من مانع يمنعه إذا هو عاقبهم أو يحول بينه وبينهم ، كالذين اتخذوهم فى الدنيا شركاء وزعموهم شفعاء ، فذلك هو اليوم الذى تنقطع فيه الأسباب التى كانت تفيد فى الدنيا « يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ » .

(كأنما أغشيت وجوههم قطعا من الليل مظلم) أى كأنما ألبست وجوههم قطعا من أديم الليل حال كونه حالكا مظلما لا بصيص فيه من نور القمر الطالع ولا النجم الثاقب فتشققها قطعة بعد قطعة فصارت ظلمات متراكمة بعضها فوق بعض .

(أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) أى أولئك الذين لهم تلك الصفات هم أصحاب النار هم فيها خالدون لا يبرحونها لأنه ليس لهم مأوى سواها ، وقد جاء فى معنى هذه الآيات فى وصف الفريقين قوله : « وَجُودَ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ، وَوُجُودَ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ، أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجِرَةُ » وقوله : « وَوُجُودَ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ ، وَوُجُودَ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ تَطُنُّ أَنْ يَفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ » .

وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائِكُمْ ، فَرَلَيْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَائُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِلَّا نَا تَعْبُدُونَ (٢٨)

فَكَفَى بِاللّٰهِ شَهِيدًا يَّبَيِّنُنَا وَيَنْكُرُ لَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ (٢٩)
هَٰذَا لَكَ تَبْلُوكُلُ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوْا إِلَى اللّٰهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ
وَوَضَّلَ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٣٠)

شرح المفردات

الحشر: الجمع من كل جانب إلى موقف واحد ، ومكانكم : كلمة يراد بها التهديد
والوعيد ، أى الزموا مكانكم ، وزيلنا : فرقنا وميزنا ، وتبلو : تختبر ، وأسلفت :
قدمت ، وضل : ضاع وذهب .

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه وتعالى جزاء الذين كسبوا السيئات وما يكون لهم من الذلة
والهوان - قفى على ذلك بذكر اليوم الذى يحصل فيه هذا الجزاء .

الإيضاح

(ويوم نحشرهم جميعا) أى واذا ذكر أيها الرسول الكريم لكلا الفريقين
الذين أحسنوا الحسنى ، والذين كسبوا السيئات - يوم نحشرهم جميعا بلا تحالف أحد
فى موقف الحساب .

(ثم نقول للذين أشركوا : مكانكم أنتم وشركاؤكم) أى ثم نقول لمن أشرك منهم
بعد طول مكث لا يكلمون بشيء - الزموا مكانكم أنتم وشركاؤكم لا تبرحوه حتى
تنظروا ما يفعل بكم ويفصل بينكم فيما كان من سبب عبادتكم إياهم والحجة التى يدلى بها
كل فريق منكم .

وفى هذا وعيد شديد وتوبيخ لهم على رؤوس الأشهاد وتقرير بكون هذا
معظم سيئاتهم .

(فزيلنا بينهم) أى ففرقنا بين الشركاء ومن أشركوهم مع الله سبحانه وتعالى ،

وميزنا بعضهم من بعض ، كما يميز بين الخصوم عند الحساب ، ويراد بهذا التفريق تقطيع ما كان بينهم فى الدنيا من صلات وروابط وخيبة ما كان للمشركين فى الشركاء من آمال .

(وقال شركاؤهم ما كنتم إيانا تعبدون) أى وقال شركاؤهم : ما كنتم تخصصوننا بالعبادة ، وإنما كنتم تعبدون أهواءكم وشياطينكم التى كانت تقويكم ، وتتخذون تمائيلنا هياكل منافعكم وأغراضكم ، والمعبود الحق هو الذى يعبد لأنه صاحب السطان الأعلى على الخلق ويده النفع والضرر .

(فكفى بالله شهيدا بيننا وبينكم) أى فكفى الله شهيدا وحكما بيننا وبينكم ، فهو العليم بحالنا وحالكم .

(إن كنا عن عبادتكم لنافلين) أى إننا كنا فى غفلة عن عبادتكم لا ننظر إليها ولا نفكر فيها .

(هنالك تباين كل نفس ما أسلفت) أى فى موقف الحساب تختبر كل نفس من عابدة ومعبودة ، ومؤمنة وجاحدة ، ما قدمت فى حياتها الدنيا من عمل ، وما كان لكسبها فى صفاتها من أثر ، خير أو شر ، بما ترى من الجزاء عليه فهو ثمرة طليعية له لاشأن فيه لولى أو شفيع ولا معبود ولا شريك .

(وردوا إلى الله مولاهم الحق) أى ارجعوا إلى الله الذى هو مولاهم الحق ، دون ما اتخذوا من دونه بالباطل من الأولياء والشفعاء ، والأنداد والشركاء .

وقد جاء هذا المعنى فى آيات كثيرة كقوله « إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ » وقوله « إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ » وقوله « وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ » .

(وضل عنهم ما كانوا يفترون) أى وضاع عنهم ما كانوا يفترون عليه من الشفعاء والأولياء ، فلم يجدوا أحدا ينصرهم ولا ينقذهم من هول ذلك الموقف كما قال : « يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ » وقد تكرر هذا المعنى فى آيات

كثيرة ، منها ما جاء مجملا ، ومنها ما جاء مفصلا ، فمنها ما يسأل الله فيه العابدين ، ومنها ما يسأل فيه المعبودين ، ومنها ما عين فيه اسم الملائكة والجن والشياطين .

قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمْ مَنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٣١) فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ، فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ، فَأَنَّى تُصْرَفُونَ (٣٢) كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٣).

المعنى الجملى

بعد أن بين جنائيات المشركين على أنفسهم وبين فساد معتقداتهم وما سيلقونه من الجزاء على ما فعلوا - قفى على ذلك بإقامة الحجج على المشركين فى إثبات التوحيد والبعث ، ثم أوردفه بإثبات النبوة والرسالة والقرآن :

الأيضاح

(قل من يرزقكم من السماء والأرض) أى قل أيها الرسول لهؤلاء المعاندين من أهل مكة : من يرزقكم من السماء بما ينزله عليكم من الأمطار ، ومن الأرض بما ينبت من شتى النباتات من نجم وشجر تأكلون منه وتأكل أنعامكم .

(أم من يملك السمع والأبصار) أى قل لهم من يملك ما تتمتعون به من حاستى السمع والبصر ، وأتم بدونهما لا تدرسون شيئا من أمور العالم ، وتكون الأنعام والهوام بل الشجر خيرا منكم باستغنائها عن يقوم بضرورات معاشها .

وخص هاتين الحاستين بالذكر لأن عليهما مدار الحياة الحيوانية وكال الحياة الإنسانية إذ بهما تحصيل العلوم الأولية .

وخلاصة ذلك — من خبق هذه الحواس ووهبها للناس وحفظها مما يعتريها من الآفات ، ولاشك أن الجواب عن ذلك السؤال لاحاجة إلى الفكر فيه ، فإن هم تأملوا فى ذلك ازدادوا علما وإعجابا بإنعام الله بهما ، وإيماننا بأنه لا يقدر غيره على إيجادها .

(ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى) أى ومن ذا الذى بيده أمر الموت والحياة فيخرج الحى من الميت والميت من الحى فيما تعرفون من مخلوقات وما لا تعرفون ، فالله هو الذى يخرج النبات من الأرض الميتة بعد إحيائه بإيها بماء المطر النازل عليها من السماء كما قال تعالى : « أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ » .

وعلاوة الحياة فى النبات النمو ، وفى الحيوان النمو والإحساس والحركة بالإرادة ، ولم يكونوا يصفون أصول الأحياء بالحياة كالخشب والنوى وبيض الحيوان ومنه ، ومن ثم مثلوا إخراج الحى من الميت والميت من الحى بخروج النخلة من النواة والطارئ من البيضة وعكسهما ، وهو تفسير صحيح عند علماء اللغة ، غير صحيح عند علماء المواليد الثلاثة ، وبه تحصل الدلالة على قدرة الله وحكمته وتديره ورحمته لدى مخاطبين .

وإذا كان أرباب الفنون أثبتوا أن فى أصول النبات كالبذور والنوى والبيض والمنى حياة ، فهم يثبتون أيضا أن أصول الأحياء فى الأرض كلها خرجت من مادة ميتة ، فقد قالوا إن الأرض كانت كتلة نارية ملتهبة انفصلت من الشمس ثم صارت ماء ، ثم نبتت اليابسة فى الماء ثم تكون من الماء النبات والحيوان فى أطوار شتى ، وقالوا أيضا إن الغذاء من الطعام الميت الذى يحرق بالنار ويتولد منه الدم ، ومن هذا الدم يكون البيض والمنى المشتملان على مادة الحياة ، وقالوا أيضا: إن بعض مواد البدن الحية تموت وتخرج منه مع البخار والعرق وغيرها مما يفرزه البدن ، وتتجدد فيه مواد جديدة تحمل محل ما خرج منها وفى .

والخلاصة — إن علماء المواليد قالوا : الحى لا يخرج إلا من حى ، ولكن الحياة الأولى هى من خلق الله الحى بذاته الحى لغيره .

(ومن يدبر الأمر) أى ومن يلى تدبير أمر الخليقة جميعا بما أودعه فى كل منها من السنن وقدره من النظام .

(فسيقولون الله) أى فسيجيبون عن هذه الأسئلة الخمسة بلا تعالم ولا تكو بأن فاعل هذا كله هو الله رب العالم كله ومليكه — إذ لا جواب غيره وهم لا يجحدون ذلك ولا ينكرونه .

(فقل أفلا تتقون) أى فقل لهم أيها الرسول الكريم : أفلا تتقون سخط الله وعقابه لكم بشرككم وعبادتكم لغيره ممن لا يملك لكم ضرا ولا نفعا .

(فذاكم الله ربكم الحق) أى فذلكم المتصف بكل تلك الصفات السالفة هو الله الربى لكم بنعمه والمدير لأموركم ، وهو الحق الثابت بذاته الحى الحى لغيره المستحق للعبادة دون سواه .

(فماذا بعد الحق إلا الضلال) أى فماذا بعد انرب الحق الثابتة ربو بيته إلا الضلال أى الباطل الضائع المضمحل ، فالذى يفعل تلك الأمور هو الرب الحق ، وعبادته وحده هى الهدى ، وما سواها من عبادة الشركاء والوسطاء ضلال ، وكل من يعبد غيره معه فهو مشرك مبطل ضال .

(فأنى تصرفون) أى فكيف تتحولون عن الحق إلى الباطل وعن الهدى إلى الضلال ، مع علمكم بما كان به الله هو الرب الحق ، فما بالكم تقرون بتوحيد الربوبية دون توحيد الألوهية فتتخذون مع الله آلهة أخرى .

(كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا) أى مثل ذلك الذى حقت به كلمة ربك من وحدة الربوبية والألوهية ، وكون الحق ليس بعده لمن تنكب عنه إلا الضلال — حقت كلمة ربك : أى وعيده على الذين خرجوا من حظيرة الحق ، وهو توحيد الألوهية والربوبية وهداية الدين الحق .

(أنهم لا يؤمنون) أى هى أنهم لا يؤمنون بما يدعوهم إليه رسلنا من التوحيد والهدى مهما تكن الآية بيّنة ، والحجة ظاهرة قوية .

وليس المراد أنه يمنعهم من الإيمان بالقهر ، بل هم يمتنعون منه باختيارهم لفقدهم نور البصيرة واستقلال العقل فلا يتوجهون إلى التمييز بين الحق والباطل ، والهدى والضلال لرسوخهم فى الكفر ، واطمئنئتهم به بالتقليد كما قال تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ، وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ » .

قُلْ هَلْ مِنْ شَرِّكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ؟ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ، فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (٣٤) قُلْ هَلْ مِنْ شَرِّكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ ؟ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ ، أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ مَنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٥) وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (٣٦)

المعنى الجملى

هذا ضرب آخر من الحجة أقامه سبحانه دليلا على توحيده و بطلان الإشراك به جاء بطريق السؤال للتوبيخ وإلزام الخصم ، فإن الكلام إذا كان ظاهرا جليا ، ثم ذكر على سبيل الاستفهام ، وتفويض الجواب إلى المسئول يكون أوقع فى النفس وأبلغ فى الدلالة على الغرض .

الإيضاح

(قل هل من شركائكم من بدأ الخلق ثم يعيده) أى قل لهم أيها الرسول : هل أحد من شركائكم الذين عبدتموهم مع الله أو من دون الله من الأصنام أو الأرواح الحالة فيها كما تزعمون ، أو الكواكب السيارة أو غيرها من الأحياء كالملائكة والجن ، من له هذا التصرف في السكون ببدء الخلق في طور ثم إعادته في طور آخر .

ولما كانوا لا يجيبون عن هذا السؤال كما أجابوا عن الأسئلة الأولى لإنكارهم للبعث والنعاد ، لقّن الله رسوله الجواب فقال :

(قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده) إذ القادر على بدء الخلق يكون قادرا على إعادته بالأولى ، وهم ينكرون إعادة الأحياء الحيوانية دون الأحياء النباتية ، إذ هم يشاهدون بدء خلق النبات في الأرض حين ما يصيبها ماء المطر في فصل الشتاء وموته بجفافها في فصل الصيف والخريف ، ثم إعادته بمثل ما بدأه مرة بعد أخرى ، ويقولون بأن الله هو الذى يفعل البدء والإعادة ، لأنهم يشاهدون كلا منهما وهم لا يسمعون إلا بما يرون بأعينهم أو يلمسونه بأيديهم قال :

(فأنى تؤفكون) أى فكيف تصرفون من الحق الذى لا يحيد عنه ، وهو التوحيد إلى الضلال البين ، وهو الإشراك وعبادة الأصنام ، وذلك من دواعي الفطرة وخاصة العقل حين تفكيره في المصير .

ثم جاء باحتجاج آخر على ما ذكره إلزام لهم عقب الإلزام الأول ، فسألهم عن شأن من شئون الربوبية المتغنى لاستحقاق الألوهية وتوحيد العبادة الاعتقادية والعملية فقال :

(قل هل من شركائكم من يهdy إلى الحق) أى قل لهم أيها الرسول : هل من أولئك الشركاء من يهdy إلى الحق بوجه من وجوه الهداية التى بها تتم حكمة الخلق . كما يدل على ذلك قوله (رَبُّهُ الَّذِى أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ حَلْفَهُ ثُمَّ هَدَى)

والهداية أنواع — هداية الغريزة والفطرة التى أودعها الله فى الإنسان والحيوان ، وهداية الحواس من سمع وبصر ونحو ذلك ، وهداية التفكير والاستدلال بوساطة هذه الوسائل ، وهداية الدين ، وهو للنوع البشرى فى جملته بمثابة العقل للأفراد ، وهداية التوفيق الموصل بالفعل إلى الغاية بتوجيه النفس إلى طلب الحق وتسهيل سبله ومنع الصوارف عنه .

ولما كانوا لا يستطيعون أن يدعّوا أن أحدا من أولئك الشركاء يهذى إلى الحق لامن ناحية الخلق ولا من ناحية التشريع ، لقن الله رسوله الجواب فقال :
(قل الله يهذى للحق) أى قل هو الله سبحانه الذى يهذى إلى الحق دون غيره بما نصب من الأدلة والحجج ، وأرسل من الرسل وأنزل من الكتب وهدى إلى النظر والتدبر وأعطى من الحواس .

(أفمن يهذى إلى الحق أحق أن يتبع أم من لا يهذى إلا أن يهذى) قرأ يعقوب وحفص يهذى بكسر الهاء ، وتشديد الدال وأصله يهتدى ، أى أفمن يهذى إلى الحق وهو الله أحق أن يتبع فيما يشرعه ، أم من لا يهذى غيره ولا يهتدى بنفسه إلا أن يهديه غيره وهو الله تعالى إذ لا هادى غيره .

ويدخل فيمن نفى عنهم الهداية ممن اتخذوا شركاء — المسيح عيسى بن مريم وعزير والملائكة . وهؤلاء كانوا يهدون إلى الحق بهداية الله ووحيه كما قال تعالى فى سورة الأنبياء « وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا » .

(فما لكم كيف تحكمون ؟) أى أى شئ أصابكم وماذا حلّ بكم حتى اتخذتم هؤلاء شركاء وجعلتموهم وسطاء بينكم وبين ربكم الذى لا خالق ولا رازق ولا هادى لكم سواء ، كيف تحكمون بجواز عبادتهم وشفاعتهم عنده بدون إذنه . وفى هذا تعجيب من حالهم وسوء صنيعهم وقبيح فعلهم .

(وما يتبع أ كثرهم إلا ظنا) وبعد أن أقام الحجج على توحيد الربوبية والألوهية ، بين حال المشركين الاعتقادية ، وهى أن أ كثرهم لا يتبعون فى شركهم وعبادتهم

لغير الله ، ولا فى إنكارهم للبعث وتكذيبهم للرسول عليه الصلاة والسلام إلا ضربا من ضروب الظن قد يكون ضعيفا كأن يقيسوا غائبا على شاهد ومجهولا على معروف ويقلدون الآباء اعتقادا منهم أنهم لا يكونون على باطل فى اعتقادهم ، ولا ضلال فى أعمالهم . وقليل منهم كان يعلم أن ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم هو الحق والهدى وأن أصنامهم وسائر معبوداتهم لا تنفع ولا تنفع ، ولكنهم يمجّدون بآيات الله ، ويكذبون رسوله صلى الله عليه وسلم عنادا واستكبارا وخوفا على زعامتهم أن تضع سدى فيصبحون تابعين بعد أن كانوا متبوعين .

(إن الظن لا يغنى من الحق شيئا) الحق هو الثابت الذى لا ريب فى ثبوته وتحققه ، أى إن الشك لا يقوم مقام اليقين فى شيء ، ولا ينتفع به حيث يحتاج إلى اليقين .

وخلاصة ذلك — إن الظن لا يجعل صاحبه غنيا بعلم اليقين فيما يطلب فيه ذلك كالعقائد الدينية .

(إن الله عليم بما يفعلون) أى إن الله عليم بما كانوا يعملون بمقتضى اعتقاداتهم الظنية والقطعية ، فهو يحاسبهم ويحازيهم على كل عمل منها ، كتكذيبهم للرسول صلى الله عليه وسلم مع قيام الأدلة القطعية على صدقه ، واتباعهم للظن كالانقياد باتباع الآباء والأجداد .

وفى الآية إيماء إلى أن أصول الإيمان تبنى على اليقين دون الظن ، فالعلم المفيد للحق هو ما كان قطعيا من كتاب أو سنة ، وهو الدين الذى لا يجوز للمسلمين التفرق والاختلاف فيه ، وما دونه مما لا يفيد إلا الظن فلا يؤخذ به فى الاعتقاد وهو متروك للاجتهاد فى الأعمال ، اجتهاد الأفراد فى الأعمال الشخصية ، واجتهاد أولى الأمر فى القضاء مع سلوك طريق الشورى حتى يتحقق العدل والمساواة فى المصالح العامة .

وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ
 الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٣٧)
 أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ
 دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣٨) بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا
 يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ؛ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ
 الظَّالِمِينَ (٣٩)

المعنى الجملى

بعد أن ذكر عز اسمه الأدلة على أن القرآن من عنده، وأن محمد صلى الله عليه وسلم
 عاجز كغيره عن الإتيان بمثله ، ثم أتى بالحجج على بطلان شركهم واتباع أكثرهم
 لأذى الظن وأضعفه فى عقائدهم - عاد إلى الكلام فى تنفيذ رأيهم فى الطعن على
 القرآن بقتضى هذا الظن الضعيف لدى الأكثرين منهم ، والجحود والعناد من
 الأقلين كالزعماء والمستكبرين .

الإيضاح

(وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله) أى لا يصح ولا يعقل أن يفترىه
 أحد على الله من دونه وبنسبه إليه ، إذ لا يقدر على ذلك غيره عز وجل ، فإن ما فيه
 من علوم عالية ، وحكم سامية ، وتشريع عادل ، وآداب اجتماعية ، وأنباء بالغيوب
 الماضية والمستقبلية ، وجعل المقصد من كل ذلك هو اتباع الحق واجتناب الضلال ،
 والوصول بذلك إلى انعم الصحيح - ليس فى طوق البشر ولا هو داخل تحت قدرته
 وفى حيز مكنته ، واثن سلم أن بشرا فى مكنته ذلك فلن يكون إلا أرق الحكماء
 والأنبياء والملائكة ، ومثل هذا لن يفترى على الله شيئا .

ولقد ثبت أن أشد أعداء النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو أبو جهل قال : إن محمدا لم يكذب على بشر قط ، أفيكذب الله ؟

(ونكن تصديق الذى بين يديه) أى ولكن كان تصديق الذى تقدمه من الوحي لرسول الله تعالى بالإجمال كنوح وإبراهيم وموسى وعيسى صلوات الله عليهم بدعوته إلى أصول الدين الحق من الإيمان بالله واليوم الآخر وصالح الأعمال بعد أن نسي بعض هذا بجملة أتباعهم وضلوا عن بعض ، ولم يكن محمد النبي الأمى يعلم شيئا من ذلك لولا الوحي عن ربه .

(وتفصيل الكتاب) أى وتفصيل ما كتب وأثبت من الشرائع والأحكام والعبر والمواعظ وشئون الاجتماع .

(لا ريب فيه) أى لا ينبغي لعائيل أن يرتاب فيه لوضوح برهانه ، لأنه الحق والهدى .

(من رب العالمين) أى من وحيه لا افتراء من عند غيره ولا اختلافا كما قال : « وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدَ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا » .

وبعد أن أبان أنه أجل وأعظم من أن يفترى لعجز الخلق عن الإنيان بمثله . انتقل إلى حكاية زعم هؤلاء الجاهدين والمعاندين الذين قالوا : إن محمدا صلى الله عليه وسلم قد افتراه وفند مزاعمهم وتعجب من حالهم وشنيع مقالهم وتحداهم أن يأتوا بمثله فقال : (أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين) أى ما كان ينبغي أن تقولوا إن محمدا صلى الله عليه وسلم افتراه من عند نفسه واحتقنه ، إذ لو كان الأمر كما تقولون وأنى اختلقته وافتريته ، فأتوا بسورة مثله فى نظمه وأسسه وعلمه مفتردة فى موضوعها لاتأتمون أن تكون حقا فى أخبارها ، فإن لسانى لسانكم ، وكلامى كلامكم ، وأنهم أشد مرانا واعتقادا للذتر والنظم منى ، واطلبوا من يعينكم على ذلك من دون الله . ولن تستطيعوا أن تفعلوا شيئا ، فإن جميع الخلق عاجزون عن هذا : « قُلْ إِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا

الْقُرْآنَ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا » إن كنتم صادقين في زعمكم أنى افتريته .

وإذ قد عجزتم عن ذلك مع شدة تمسكم ، ولم يوجد فى كلام أولئك الذين نصبت لهم المنابر فى سوق عكاظ ، وبهم دارت رحى النظم والنثر ، وتقصت أعمارهم فى الإنشاء والإنشاد مثله - فهو ليس من كلام البشر ، بل هو من كلام خالق القوى والقدر .

ومن البين أنه ما كان لعاقل مثله صلى الله عليه وسلم أن يتحداهم هذا التحدى لو لم يكن موقنا أن الإنس والجن لا يستطيعون أن يأتوا بمثل هذا القرآن فى جملته ولا بسورة مثله ، إذ لو كان هو الذى أنشأه وألفه لمصلحة الناس برأيه لكان عقله وذكاؤه يمنعانه من الجزم بعجز عقلاء الخلق من العوالم الظاهرة والباطنة عن الإتيان بسورة مثل ما أتى هو به .

إذ العاقل الفطن يعلم أن ما يمكنه من الأمر قد يمكن غيره ، بل ربما وجد من هو أقدر منه عليه .

والخلاصة - إن محمدا صلى الله عليه وسلم كان على يقين بأنه من عند ربه ، وأنه صلى الله عليه وسلم كغيره لا يقدر على الإتيان بمثله .

ثم انتقل من إظهار بطلان ما قالوه فى القرآن بتحدى لهم - إلى إظهار بطلان بيان أن كلامهم ناشئ من عدم علمهم بحقيقة أمره واختبار حاله فقال :

(بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه) أى هم سارعوا إلى تكذيبه من غير أن يتدبروا ما فيه ويقفوا على ما احتوى عليه من الأدلة والبراهين الدالة على أنه كما وصف آتفا ، ومن قبل أن يعلموا أنه ليس مما يمكن أن يؤتى بمثله .

(ولما يأتهم تأويله) أى ولم يأتهم إلى الآن ما يؤول إليه ويكون مصداقاله بالفعل ويقع ما أخبر به من الأمور المستقبلية .

وخلاصة ذلك - إنهم على إعجاز القرآن من جهة اللفظ والمعنى والإخبار بالغيب - قد أسرعوا فى تكذيبه قبل أن يتدبروا أمره أو ينتظروا وقوع ما أخبر به -

وفي تكذيب الشيء قبل علمه المتوقع حصوله - شناعة وقصر نظر لا تخفى على عقل ،
وفيه دليل على أنهم مقلدون .

(كذلك كذب الذين من قبلهم) أى مثل هذا التكذيب بلا تدبر ولا تأمل
كذب الذين من قبلهم من مشركي الأمم رسَلهم بما لم يحيطوا بعلمه قبل أن يأتيهم
تأويله من عذاب الله الذي أوعدهم به .

(فانظر كيف كان عاقبة الظالمين) أى فانظر أيها الرسول الكريم كيف كان
عاقبة الظالمين لأنفسهم بتكذيب رسَلهم وهوتاويل وعيدهم لهم لتعلم مصير من ظلموا
أنفسهم من بعدهم ، وهذه العاقبة هي التي بينها الله في قوله : « فَكَارًا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ
فَمِنْهُمْ مَن أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَن أَخَذَتُهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَن خَسَفْنَا بِهِ
الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَن أَعْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ »
وقد أُنذر الله قوم محمد صلى الله عليه وسلم بمثل ما نزل بالأمم قبلهم في الدنيا بهذه
الآية وغيرها من هذه السورة ، كما أُنذرهم عذاب الآخرة وكذبه المعاندون المقلدون
في كل ذلك ظنا منهم أنه لا يقع .

وَمِنْهُمْ مَن يُؤْمِنُ بِهِ ، وَمِنْهُمْ مَن لَا يُؤْمِنُ بِهِ ، وَرَبُّكَ أَعْلَمُ
بِالْمُفْسِدِينَ (٤٠) وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلٍ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ، أَنْتُمْ
بَرِيثُونَ مِمَّا أَعْمَلُوا وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ (٤١)

المعنى الجملى

بعد أن أبان سبحانه في الآية السالفة أنهم كذبوا بالقرآن قبل أن يأتيهم تأويله
وقبل أن يحيطوا بعلمه - فقى على ذلك بذكر حالهم بعد أن يأتيهم التأويل المتوقع ،
وبين أنهم حينئذ يكونون فريقين : فريق يؤمن به ، وفريق يستمر على
كفره وعناده .

الإيضاح

(ومنهم من يؤمن به) أى ومن هؤلاء المكذبين من يؤمن به حين إتيان تأويله وظهور حقيقته بعد أن سعوا فى معارضته ورازوا قواهم فيها فتضاءلت دونها .
 (ومنهم من لا يؤمن به) أى ومنهم من يصبر على الكفر ويستمر عليه .
 (وربك أعلم بالفسدين) أى وربك أعلم بمن يفسدون فى الأرض بالشرك والظلم والبغى لفقدهم الاستعداد للإيمان ، وهؤلاء سيعذبهم فى الدنيا ويخزيهم وينصرم عليهم ويجزىهم فى الآخرة لفسادهم وسوء معتقداتهم .
 (وإن كذبوك قتل لى على ولكم عملكم) أى وإن أصرروا على تكذيبك قتل لى على ، وهو البلاغ المبين والإنذار والتبشير ، وما أنا بمسيطر ولا جبار ، ولكم عملكم وهو الظلم والفساد الذى تجزون به يوم الحساب كما قال تعالى : « هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ » .
 (أنتم بريئون مما أعمل وأنا برىء مما تعملون) أى لا تؤاخذون بعملى ولا أؤاخذ بعملكم ، وهذا كقوله : « قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ قَعْلَىٰ إِجْرَامِي ، وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ » .

وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ، أَفَأَنْتَ تَسْمَعُ الشَّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ (٤٢) وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ ، أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْى وَلَوْ كَانُوا لَا يَبْصُرُونَ (٤٣) إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٤)

المعنى الجملى

بعد أن أنبأ الله رسوله صلى الله عليه وسلم بأن من قومه من لا يؤمن به لا حالا ولا استقبالا ، بل يصرون على التكذيب بعد ما جاءتهم البينات ، وكان ذلك من

شأنه صلى الله عليه وسلم أن يشير بحجبه ويجعله يطيل الحزن والأسف إن لم يؤمنوا بهذا الحديث - ذكر سبب هذا ، وهو أنهم قوم طبع الله على قلوبهم وفقدوا الاستعداد للإيمان فلا وسيلة له صلى الله عليه وسلم في إصلاح حالهم ولا قدرة له صلى الله عليه وسلم على هدايتهم .

الإيضاح

(ومنهم من يستمعون إليك) أى ومن المكذبين ناس يصيخون بأسماعهم إذا قرأت القرآن أو بينت ما فيه من أصول الشرائع والأحكام ، ولكنهم لا يسمعون إذ يستمعون ، فهم لا يتدبرون القول ولا يتفقهون ما يراد منه ، بل جلّ همهم أن يتسمعوا غرابة نظمه وجرس صوته بترتيبه ، كمن يستمع إلى الطائر يغرد على غصن الشجرة ليلتذ بصوته لا ليفهم ما يغرد به ، وقد وصف الله حالهم فى آى أخرى فقال : « مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَعْبُونَ . لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ » وقال : « وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا » .

والآن نرى من المسلمين من يستمع إلى قراءة القرآن من قارئ حسن الصوت للتأذ بترتيبه وتوقيع صوته لا لينتفع بمطائنه وعبره ، ولا ليفهم عقائده وأحكامه .

(أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون) أى إن السماع النافع للمستمع هو الذى يعقل به ما يسمعه ويفقه ويعمل به ، ومن فقد هذا كان كالأصم الذى لا يسمع ، وإنك أيها الرسول الكريم لم تؤت القدرة على إسماع الصم الذين فقدوا حاسة السمع حقيقة فكذلك لا تستطيع أن تسمع إسماعا نافعا من فى حكمهم وهم الذين لا يعقلون ما يسمعون ولا يفقهون معناه فيبتدوا به وينتفعوا بمطائنه .

(ومنهم من ينظر إليك) أى ومنهم من يتجه نظره إليك حين تقرأ القرآن ،

ولكنه لا يبصر ما آتاك الله من نور الإيمان والخلق العظيم وأمارات الهدى والتزام الصدق .

(أفأنت تهدى العمى ولو كانوا لا يبصرون) أى إنك أيها الرسول الكريم كما لا تقدر على هداية العمى بدلائل البصر الحسية ، لا تقدر على هدايتهم بالدلائل العقلية ، ولو كانوا فاقدين لنعمة البصيرة التى تدركها .

وخلاصة ما تقدم — إن هداية الدين كهداية الحس لا تكون إلا لله — تعد بهداية العقل ، وإن هداية العقل لا تحصل إلا بتوجيه النفس وصحة القصد ، وهؤلاء قد انصرفت نفوسهم عن استعمال عقولهم استعمالا نافعا فى الدلائل البصرية والسمعية لإدراك أى مطلب من المطالب الشريفة التى وراء شهواتهم وتقاليدهم .

(إن الله لا يظلم الناس شيئا) يراد بالظلم هنا المعنى الذى تدل عليه اللغة وهونقص ما تقتضى الخلقة الكاملة وجوده كما فى قوله : « كَلِمَاتُ الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكْتَبًا وَلَمْ تُظَلِّمْ مِنْهُ شَيْئًا » أى إنه لم يكن من سنن الله تعالى فى خلقه أن ينقصهم شيئا من الأسباب التى يهتدون باستعمالها إلى ما فيه خيرهم من إدراكات وإرشاد إلى الحق بإرسال الرسل ونصب الأدلة التى توصلهم إلى سعادتهم فى الدنيا والآخرة .

(ولكن الناس أنفسهم يظلمون) أى إنهم يظلمون أنفسهم وحدها دون غيرها لأن عقاب ظلمهم واقع عليها ، فهم يحنون عليها بكفرهم بما أنعم الله عليهم من هدايات المشاعر والعقل والدين و بدم استعمالها فيما خلقت لأجله من اتباع الحق فى الاعتقاد والهدى فى الأعمال ، وذلك هو الصراط المستقيم الموصل لسعادة الدارين .

وَيَوْمَ يُحْشَرُ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لَمْ يَلْبِثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ
بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (٤٥)

المعنى الجملى

لما وصف الله هؤلاء المشركين بترك التدبر والإصغاء وتكذيبهم للرسول صلى الله عليه وسلم والقرآن قبل أن يأتيهم تأويله - قفى على ذلك بالوعيد بما سيكون لهم من الجزاء على هذا يوم القيامة .

الإيضاح

(ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار يتعارفون بينهم) الساعة يضرب بها المثل فى القلة : أى وأنذرهم أيها الرسول يوم يجمعهم الله بالبعث بعد الموت ويسوقهم إلى مواقف الحساب والجزاء ، وكأنهم لم يلبثوا فى الدنيا إلا مدة قليلة ثم تقضت .

وخلاصة ذلك — إن هذه الدنيا التى غرهم بمتاعها الخقيق الزائل قصيرة الأمد ستزول بموتهم ، وسيقدرون يوم القيامة قصرها بساعة من النهار لاتسع لأكثر من التعارف ، والآية بمعنى قوله : « كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ ، لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ » وقوله : « وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ » وقوله : « قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ؟ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِينَ ، قَالَ إِنَّ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ » .

(قد خسر الذين كذبوا بقاء الله وما كانوا مهتدين) أى إن هؤلاء آثروا الحياة القصيرة المنغصة بالأكدار السريعة الزوال على الحياة الأبدية بما فيها من النعيم القيم ، فلم يستعدوا لها ويعملوا الأعمال الصالحة التى تتركى نفوسهم وتهذب أرواحهم ففسروا السعادة فيها وما كانوا مهتدين فيما اختاروه لأنفسهم من إيشار الخسيس الزائل على النفيس الخالد .

وَأِمَّا تُرِيتَكَ بِبَعْضِ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ تَتَوَفَّيْنَاكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ
 اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ (٤٦) وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ
 قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٤٧) وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ
 إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤٨) قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ
 اللَّهُ ، لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً
 وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (٤٩) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن آتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا
 يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ (٥٠) أَأَنْتُمْ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ آلَآنَ وَقَدْ كُنْتُمْ
 بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (٥١) ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ
 تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (٥٢) وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقُّ هُوَ ؟ قُلْ إِي
 وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (٥٣) وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ
 مَافِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ ، وَقُضِيَ
 بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٥٤) أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَافِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
 أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٥٥) هُوَ يُخَيِّبُ وَيُمِيتُ
 وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٥٦)

المعنى الجملى

بعد أن أبان سبحانه وتعالى فى الآية السالفة أن هؤلاء المشركين الذين كذبوا
 ببقاء الله تعالى قد خسروا وما كانوا مهتدين ، وهذا يتضمن تهديدا ووعيدا بالعذاب
 الذى سيلقونه فى الدنيا والآخرة - قفى على ذلك ببيان أن بعض هذا العذاب ستره

أيها الرسول الكريم وتقر عينك برؤيته ، وبعض آخر سيكون لهم يوم الجزاء وهو عليهم بما فعلوه فيجازيهم به قدر ما يستحقون .

الإيضاح

(وإما نرينك بعض الذى نعدهم) أى وإن أريناك بعض ما نعدهم من العقاب فى الدنيا ، فذلك الذى يستحقونه وهم له أهل ، وقد أراه ما نزل بهم من القحط والمجاعة بدعائه صلى الله عليه وسلم عليهم ، ونصره عليهم نصرا مؤزرا فى أول معركة هاجمه بها رؤسائهم وصناديدهم وهى غزوة بدر فقتلهم وشردهم شر تفتيل وتشريد ، وكذلك فعل بهم صلى الله عليه وسلم فى غيرها من الغزوات حتى فتح عاصمتهم أم القرى ودخل الناس فى الدين أفواجا .

(أو نتوفينك فإلينا مرجعهم) أى أو نتوفينك قبل أن نريك ذلك فيهم فمصيهم بكل حال إلينا وأنشد سيلقون من الجزاء ما يعلمون به صدق وعيدنا .

(ثم الله شهيد على ما يفعلون) فيجزىهم به على علم وشهادة حق ، وقد جاء بمعنى الآية قوله : « فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ » وقوله . « وَإِنَّمَا تَرِيكَ بَعْضَ الَّذِي نَعْدُهُمْ أَوْ نتوفينك فإلينا عليك البلاغ وعلينا الحساب » .

(ولكل أمة رسول) أى إنه تعالى رحمة بعباده وإزالة للحجة جعل لكل أمة من الأمم الخالية رسولا بعثه فيها وقت الحاجة إليه ليبين لهم ما يجب عليهم من الإيمان به وباليوم الآخر وما ينجيهم من العقاب فى ذلك اليوم وهو العمل الصالح الذى يكون سببا فى سعادتهم فى الدارين .

وفى الآية دليل على أن الله تعالى قد أرسل إلى كل جماعة من الأمم السالفة رسولا وما أهمل أمة قط ، ويدل على ذلك قوله : « وَإِن مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ » وقوله : « وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا » وقوله : « رَسُولًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ » .

(فإذا جاء رسولهم قضى بينهم بالقسط وهم لا يظلمون) أى فإذا جاء رسولهم وبلغهم ما يجب عليهم معرفته من أمور دينه ، لم يبق لهم حينئذ عذر فى مخالفته ، فهناك فى يوم الحساب يقضى الله تعالى بينهم بالعدل ولا يظلمون فى قضائه شيئاً مما سيحل بهم من عذاب لا يكون ظلماً لهم لأنه من قبل أنفسهم وهم الذين دنسوها بسوء الأعمال فاستحقوا على ذلك شديد العقاب .

(ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين) أى ويقول كفار قرىش للرسول صلى الله عليه وسلم ومن اتبعه من المؤمنين مكذبين له صلى الله عليه وسلم فيما أخبرهم به من نزول العذاب بالأعداء والنصرة للأولياء : متى يقع هذا الوعد الذى تعدونا به إن كنتم صادقين فى قولكم : إن الله تعالى سينتقم لكم منا وينصركم علينا : أى فى نحو ما جاء فى قوله : « حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَقُولُونَ مَنْ أَضَعَفُ نَصْرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا » وقوله : « قُلْ إِنْ أَدْرَى أَقْرَبُ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا » .

وقد لقن الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم الجواب عن هذا السؤال بقوله : (قل لا أملك لنفسي ضراً ولا نفعاً إلا ما شاء الله) أى قل أيها الرسول لمن يستعجل الوعيد ويقول لك متى هذا الوعد : إني بشر رسول لا أملك لنفسي فضلاً عن غيرى شيئاً من التصرف فى الضرر فأدفعه عنها ، ولا شيئاً من النفع فأجلبه لها من غير طريق الأسباب التى يقدر عليها غيرى ، وليس منها إزال العذاب بالكفار المعاندين ، ولا إزال النصر والمعونة للمؤمنين ، لكن ما شاء الله تعالى من ذلك يكون متى شاء ولا شأن لى فيه لأنه خاص بمقام الربوبية دون الرسالة التى من وظيفتها التبليغ لا التكوين .

وقد جاء فى معنى الآية قوله : « قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ، وَأَنْتَ كُنْتَ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَأَسْتَكْثِرْتَ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » .

(لكل أمة أجل إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) أى لكل أمة من الأمم الذين أصروا على تكذيب رسولهم أجل لعذابهم يحل بهم عند حلوله لا يتعداهم إلى أمة أخرى ، إذا جاء ذلك الأجل فلا يملك رسولهم من دون الله تعالى أن يقدمه ولا أن يؤخره ساعة عن الزمان المقدر له وإن قلت .

قال في فتح البيان : وفي هذا أعظم وازع وأبلغ زاجر لمن صار ديدنه وهجراه المنادة لرسول الله صلى الله عليه وسلم والاستغاثة به عند نزول النوازل التي لا يقدر على دفعها إلا الله سبحانه وتعالى ؛ وكذلك من صار يطلب من الرسول صلى الله عليه وسلم ما لا يقدر على تحصيله إلا الله سبحانه وتعالى ؛ فإن هذا مقام رب العالمين الذي خلق الأنبياء والصالحين وجميع المخلوقين ، ورزقهم وأحياهم فكيف يطلب من نبي من الأنبياء أو ملك من الملائكة أو صالح من الصالحين ما هو عاجز عنه غير قادر عليه ويترك الطلب من رب الأرباب القادر على كل شيء الخالق الرازق المعطي المانع . وحسبك ما في الآية من موعظة ، فإن هذا سيد ولد آدم وخاتم الرسل يأمره الله بأن يقول لعباده « لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا » فكيف يملكه غيره ، وكيف يملكه غيره ممن رتبته دون رتبته ومنزلاته لا تباعه إلى منزلته ؟

فيا عجبا لقوم يعكفون على قبور الأموات الذين صاروا تحت أطباق الثرى ، ويطلبون منهم من الحوائج ما لا يقدر عليه إلا الله عز وجل ، كيف لا يتعظون لما وقعوا فيه من الشرك ، ولا يتنبهون لما حل بهم من المخالفة لمعنى لا إله إلا الله ، ومدلول « قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ » .

وأعجب من هذا اطلاع أهل العم على ما يقع من هؤلاء ولا ينكرون عليهم ولا يحوون بينهم وبين الرجوع إلى الجاهلية الأولى ، بل إلى ما هو أشد منها ، فإن أولئك يعترفون بأن الله سبحانه وتعالى هو الخالق الرازق ، المحيي المميت ، الضار النافع وإنما يجعلون أصنامهم شفعاء لهم عند الله ومقرين لهم إليه ، وهؤلاء يجعلون لهم قدرة على الضر والنفع وينادونهم تارة على الاستقلال وتارة مع ذى الجلال ، وكفاك من

شر سماعه ، والله ناصر دينه ومطهر شريعته من أوضار الشرك وأدناس الكفر ، وقد توسل الشيطان أخزاه الله تعالى بهذه الذريعة إلى ماتقر به عينه ويشلج به صدره من كفر كثير من هذه الأمة المباركة « وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا » إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ اهـ .

(قل أرأيتم إن أتاكم عذابه بيانا أو نهارا) أى قل لهم أيها الرسول أخبرونى عن حالكم وما يمكنكم أن تفعلوه إن أتاكم عذابه الذى تستعجلون به فى وقت مييتكم بالليل أو وقت اشتغالكم بهوكم ولعبكم أو بأمور معاشكم بالنهار .

(ماذا يستعجل منه المجرمون) أى أى نوع من العذاب يستعجل منه المجرمون الكذابون ؟ أعذاب الدنيا أم عذاب يوم القيامة ؟ وأيما ما استعجلوا فهو حماقة وجهالة . (أنتم إذا ما وقع آمنتم به) أى أيستعجل مجرموكم بالعذاب الذين هم أحق بالخوف منه بدل الإيمان الذى يدفعه عنهم ثم إذا وقع بالفعل آمنتم به حين لا ينفع الإيمان إذ هو قد صار ضروريا بالمشاهدة والعيان ، لا تصديقا للرسول عليه السلام .

(آلآن وقد كنتم به تستعجلون) أى وقيل لكم على سبيل التوبيخ : آلآن آمنتم به اضطاررا ، وقد كنتم به تستعجلون تكذيبا به واستكبارا . (ثم قيل للذين ظلموا ذوقوا عذاب الخلد) أى ثم قيل للذين ظلموا أنفسهم بالكفر بالرسالة والوعد والوعيد تجرعوا عذاب الله الدائم لكم أبدا بحيث لا فناء له ولا زوال .

ثم بين أن هذا العذاب جزاء ما صنعوا فى الدنيا فقال :

(هل تجزون إلا بما كنتم تكسبون) أى لا تجزون إلا بما كنتم تكسبون باختياركم من الكفر والظلم والفساد فى الأرض والعزم على الثبات عليه وعدم التحول عنه ، وليس فى هذا شىء من الظلم لأنه أثر لازم لإفساد النفس بالظلم وعمل الفاسد حتى لم تعد أهلا للكرامة وجوار المولى فى جنة الخلد .

(ويستنبئونك أحق هو ؟) أى ويسألونك أيها الرسول أن تنبئهم عن هذا

العذاب الذي تعدم به في الدنيا والآخرة أحق هو سيقع؟ جزاء على ما كنا نكسبه من المعاصي في الدنيا، أم هو إرهاب وتخويف فحسب؟

(قل إى وربى إنه لحق وما أنتم بمعجزين) إى بكسر الهمزة وسكون الياء كلمة يجاب بها عن كلام سبق بمعنى نعم، وأعجزه الأمر: فاته، أى نعم أقسم لكم بربى إنه لحق واقع ماله من دافع، وما أنتم بواجدى من يوقع العذاب بكم عاجزا عن إدراككم وإيقاعه بكم.

وخلاصة ذلك — إنه حين ينزل العذاب بكم لستم بفائتيه بهرب أو امتناع بل أنتم في قبضته وسلطانه، إذا أراد فعل ذلك بكم فاتقوا الله تعالى في أنفسكم.

روى أحمد والشيخان عن أنس قال: «بينما نحن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في المسجد إذ دخل رجل على جمل فأناخه في المسجد ثم عقله ثم قال: أيكم محمد؟ قلنا هذا الرجل الأبيض المتكى، فقال: ابن عبد المطلب؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم قد أجبتك، فقال إني أسألك فشدد عليك في المسألة فلا تجد على في نفسك، قال سل ما بدالك، فقال أسألك بربك ورب من قبلك: الله أرسلك إلى الناس كلهم، قال: اللهم نعم، قال: أنشدك بالله: الله أمرك أن تصلى الصلوات الخمس في اليوم واليلية؟ قال: اللهم نعم، قال: أنشدك بالله: الله أمرك أن تصوم هذا الشهر من السنة؟ قال: اللهم نعم، قال: أنشدك بالله، الله أمرك أن تأخذ هذه الصدقة من أغنيائنا فتقسمها على فقرائنا؟ قال: اللهم نعم، قال آمنت بما جئت به، وأنا رسول من ورأى من قومي، وأنا ضمام بن ثعلبة أخو بني سعد بن بكر».

وفي رواية أحمد أنه قال أيضا: «الله أمرك أن تأمرنا أن نعبدك ولا نشرك به شيئا وأن نخلع هذه الأنداد التي كان آباؤنا يعبدون معه؟ قال: اللهم نعم، وأنه كان أشعر ذا غديرتين وأن النبي صلى الله عليه وسلم قال «إن صدق ذو العقيصتين يدخل الجنة». وذكر أنه خرج حتى قدم على قومه فاجتمعوا إليه فكان أول ما تكلم به أن قال: بئست اللات والعزى، قالوا مه (أى كف عن هذا!) يا ضمام، اتق البرص والجذام،

اتق الجنون ، قال : ويلكم إنهما والله ما يضران ولا ينفعان ، إن الله قد بعث إليكم رسولا وأنزل كتابا استنقذكم به مما كنتم فيه ، وإني أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، قد جئتكم من عنده بما أمركم به ونهاكم عنه ، فوالله ما أمسى فى ذلك اليوم فى حاضره رجل ولا امرأة إلا مسلما .
ثم ذكر ما فى هذا اليوم من الأهوال فقال :

(ولو أن لكل نفس ظلمت ما فى الأرض لافتدت به) أى ولو أن لكل نفس كفرت بالله - جميع ما فى الأرض من أنواع الملك وصنوف النعم وأمكنها أن تجعله فداء لها من ذلك العذاب الأليم الذى تعانیه - لافتدت به ولم تدخر منه شيئا .
(وأسرؤا الندامة لما رأوا العذاب) إسرار الشيء : إخفاؤه وكتامه ، وإسرار الحديث : خفض الصوت به ، والندم والندامة : ما يجده الإنسان فى نفسه من الألم والحسرة عقب كل فعل يظهر له ضرره ، وقد يجهر به بالكلام كما قال تعالى : «يَا حَسْرَتًا عَلَى مَا فَرَّطْتُ» أو يخفيه ويكتمه حين لا يجد فائدة من إعلانه أو اتقاء للشتم أو الإهانة .
أى وأسروا أولئك الذين ظلموا أنفسهم وأسفهم على ما فعلوا من الظلم حين معاينة العذاب بأبصارهم ؛ إذ برزت لهم نار جهنم وأيقنوا أنهم واقعوها لا مصرف لهم عنها ، فما مثلهم إلا مثل من يقدم للصلب يشقله ما نزل به من الخطب الجلل ويغلب عليه الحزن القادح فيخسر به ولا يستطيع أن ينطق ببنت شفة ويبقى جامدا مهوتا لا حراك به .
ثم بين أنه لا ظلم اليوم .

(وقضى بينهم بالقسط وهم لا يظلمون) أى وقضى الله بينهم وبين خصومهم بالحق والعدل ، وخصومهم هم الرسل والمؤمنون بهم ، وكذلك من أضلهم وظلمهم من المرءوسين والضعفاء الذين كانوا يغرونهم بالكفر ويصدونهم عن الإيمان .
وجاء فى معنى هذه الآية قوله فى سورة سبأ «وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» وقوله : «يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا» وقوله : «وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا يَا وَيْلَتَا لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا» .

ثم أتبع ماتقدم بالدليل على قدرته على إنفاذ حكمه وإنجاز وعده ، وكون الظالمين لا يعجزونه ولا يستطيعون منه مهرباً فقال :

(ألا إن الله ما فى السموات والأرض) أى إنه تعالى مالك السموات والأرض وكل من فيهما من العقلاء وغيرهم ، فليس للكافرين به شىء يملكونه فيفتدون به أنفسهم من ذلك العذاب ، بل الأشياء كلها لله الذى إليه عقابهم جزاء ما كسبت أيديهم .

والخلاصة — فليتزكركم من نسي ، وليتنبه من غفل ، وليعلم من جهل ، أن الله وحده جميع ما فى العوالم العلوية والعوالم الأرضية يتصرف فيها كيف يشاء ، ولا يملك أحد من دونه شيئاً من التصرف والفداء ، فى يوم البعث والجزاء .
ثم أكد ما سلف بقوله :

(ألا إن وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون) أى إن كل ما وعد به على السنة رسله حق لا ريب فيه ، لأنه وعد المالك القادر على كل شىء ولا يعجزه شىء ولكن أكثر الكفار منكبرى البعث والجزاء لا يعلمون أمر الآخرة لفطنتهم عنها وقصور أنظارهم عن الوصول إلى ما يكون فيها .

ثم أقام الدليل على قدرته على ذلك فقال :
(هو يحيى ويميت وإليه ترجعون) أى إنه تعالى هو المحيى المميت لا يتعذر عليه فعل ما أراد من الإحياء والإماتة ، ثم إليه ترجعون حين يحييكم بعد موتكم ويحشركم إليه للحساب والجزاء بأعمالكم .

يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَ تَكْمُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا
فِي الصُّدُورِ ، وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (٥٧) قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ
فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (٥٨)

شرح المفردات

العظة : الوصية بالحق والخير واجتناب الباطل والشر بأساليب الترغيب والترهيب التى يرق لها القلب فتبعث على الفعل أو الترك ، والشفاء : الدواء ، والهدى : بيان الحق المنقذ من الضلال ، ويكون فى الاعتقاد بالحجة والبرهان ، وفى العمل ببيان المصالح والحكم ، والرحمة : الإحسان ، وفضل الله : هو توفيقهم لتزكية أنفسهم بالموعظة والهدى ، ورحمته : هى الأثرة التى تُتجت من ذلك، وبها فضلوا جميع الناس.

المعنى الجملى

بعد أن ذكر الأدلة على أسس الدين الثلاثة وهى الوحدانية والرسالة والبعث - قفى على ذلك بذكر التشريع العملى وهو القرآن الكريم ، وقد أجمل مقاصد هذا التشريع فى أمور أربعة.

الإيضاح

(يأيها الناس قد جاءكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين) أى قل لهم أيها الرسول قد جاءكم كتاب جامع لكل ما تحتاجون إليه من المواعظ الحسنة التى تصلح أخلاقكم وأعمالكم ، والشفاء للأمراض الباطنية والهداية الواضحة للصراط المستقيم الذى يوصل إلى سعادة الدنيا والآخرة ، والرحمة الخاصة للمؤمنين من رب العالمين .

والخلاصة — إن الآية الكريمة أجملت إصلاح القرآن الكريم لأنفس البشر فى أربعة أمور :

(١) الموعظة الحسنة بالترغيب والترهيب بذكر ما يرق له القلب فيبعثه على الفعل أو الترك .

وقد جاء فى معنى الآية قوله : « وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ

عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ بِعَظْمِكُمْ بِهِ « وقوله : « هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ » .

(٢) الشفاء لما فى القلوب من أدواء الشرك والنفاق وسائر الأمراض التى يشعر من أحبها بضيق الصدر كالاشك فى الإيمان والبغى والعدوان وحب الظلم وبغض الحق والخير .

(٣) الهدى إلى طريق الحق واليقين والبعد من الضلال فى الاعتقاد والعمل .

(٤) الرحمة المؤمنين وهى ما ثمره لهم هداية القرآن وتفيضه على قلوبهم ، ومن آثارها بذل المعروف وإغاثة الملهوف وكف الظلم ومنع التعدى والبغى .

وإجمال ذلك — إن موعظة القرآن وشفاءه لما فى الصدور من أمراض الكفر والنفاق وجميع الرذائل وهداه إلى الحق والفضائل موجبات إلى أمة الدعوة وهم جميع الناس ، والمؤمنون قد اختصوا بما ثمره هذه الصفات الثلاث من الرحمة لأنهم هم الذين ينتفعون بها .

ثم أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يبلغ المؤمنين بأنه يحق لهم أن يفرحوا بفضل الله عليهم بنعمة الإيمان وبالرحمة الخاصة بهم الجامعة لكل ما ذكر قبلها من مقاصد الشريعة فقال :

(قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا) أى قل لهم ليفرحوا بفضل الله وبرحمته أى إن كان شئ فى الدنيا يستحق أن يفرح به فهو فضل الله ورحمته .

روى ابن مردويه وأبو الشيخ عن أنس مرفوعا «فضل الله القرآن ، ورحمته أن جمعكم من أهله» .

وعن الحسن والضحاك وقتادة ومجاهد « فضل الله الإيمان ، ورحمته القرآن» .

(هو خير مما يجمعون) أى إن الفرح بهما أفضل وأنفع مما يجمعونه من الذهب والفضة والأنعام والحراث والخيل المسومة وسائر خيرات الدنيا لأنه هو سبب السعادة

فى الدارين . وتلك سبب السعادة فى الدنيا الزائلة فقط . فقد نال المسامون فى العصور الأولى بسببه الملك الواسع والمال الكثير مع الصلاح والإصلاح مما لم يتسن لغيرهم من قبل ولا من بعد ، و بعد أن جمعوا دينهم جمع المال ومتاع الدنيا ووجهوا همهم إليه وتركوا هداية القرآن فى إنفاقه والشكر عليه ذهبت دنياهم من أيديهم إلى أيدي أعدائهم .

قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا ، قُلْ آللهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ (٥٩) وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ (٦٠)

المعنى الجملى

بعد أن أقام سبحانه وتعالى الأدلة العقلية على إثبات الوحي والرسالة - قفى على ذلك بذكر فعل من أفعاله لا ينكرونه ولا يجادلون فى وجوده وهو يثبت صحة وجودها . ذلك أن التشريع بالتحليل والتحریم هو حق الله تعالى وحده وأن الأصل فى الأرزاق وسائر الأشياء التى ينتفع بها الإباحة ، فتحريم بعض الأشياء وتحليل بعض إما افتراء على الله تعالى يستحق فاعله أشد العقاب عليه ، وإما بأمر الله تعالى بوساطة رسله ، والأول لا تعترفون به فثبت الثانى وهو المدعى .

الإيضاح

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا) أى قل لهؤلاء المشركين أخبرونى أيها الجاحدون للوحي والرسالة - هذا الذى أفاضه الله عليكم من

فضله وإحسانه من رزق تعيشون به من نبات وحيوان فجعلتم بعضه حراما وبعضه
 حلالا وقد تقدم تفصيل ذلك فى سورة الأنعام فقال : « وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ
 الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرِزْقِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا » إلخ وقوله
 فى سورة المائدة : « مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِغَةٍ وَلَا وِصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ
 الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ » .

(قل الله أذن لكم أم على الله تفترون) أى قل لهم إن حق التحريم والتحليل
 لا يكون إلا لله ، فهل الله هو الذى أذن لكم بذلك بوحى من عنده ؟ أم أنتم على
 الله تفترون بزعمكم أنه حرّم ما حرّمتم وحل ما حللتم .

والخلاصة — إنه لا مندوحة لكم من الاعتراف بأحد الأمرين ، إما دعوى
 الإذن من الله لكم بالتحريم والتحليل ، وذلك اعتراف بالوحى ، وأنتم تنكرون وترجمون
 أنه محال ، وإما الافتراء على الله وهو الذى يلزمكم إذا أنكرتم الأول .

وبعد أن سجل سبحانه وتعالى عليهم جريمة افتراء الكذب على الله ، قفى عليه
 بالوعيد مع الإيماء إلى ما يكون من سوء حالهم وشدة عقابهم يوم القيامة فقال :

(وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة) أى أى شئ ظنهم
 فى ذلك اليوم الذى تجزى فيه كل نفس ما عملت ؟ أيطنون أنهم يتركون بلا عقاب
 على جريمة افتراء الكذب على الله وتعمده فيما هو خاص برؤيته ونزاع له فيها
 وشرك به كما قال : « أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ »
 وقال : « وَلَا تَقُولُوا لِمَا نَصَبْنَا لَكُمْ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لَتَفْتَرُوا
 عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ » .

(إن الله لذو فضل على الناس) أى إن الله ذو فضل على الناس فى كل ما خلقه
 لهم من الرزق ، وكل ما شرع لهم من الدين ، ومن ذلك أن جعل الأصل فيما أنزله
 إليهم من الرزق الإباحة ، وأن جعل حق التحريم والتجريم له وحده كيلا

يتحكم فيهم أمثالهم من عباده كمن اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله ، وهو سبحانه لم يحرم عليهم إلا ما كان ضارا بهم ، وحصر محرمات الطعام في أمور معينة .

(ولكن أكثرهم لا يشكرون) ذلك الفضل كما يجب كما قال تعالى : « وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِى الشَّاكِرُونَ » ومن ثم تراهم يحرمون ما لم يحرمه الله ويكفرون نعمه فيغالون في الزهد وترك الزينة والطيبات من الرزق ، أو يسرفون في الأكل والشرب والزينة ابتغاء الشهرة والتكبر على الناس ، مع أن الإسلام يأمر بالاعتدال كما قال تعالى : « لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّنْ سَعَتِهِ ، وَمَنْ قَدِرْ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ » .

أخرج أحمد عن أبي الأحوص عن أبيه قال : أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنارث الهیئة فقال : « هل لك مال ؟ » قلت : نعم ، قال : « من أى المال ؟ » قلت : من كل المال ، من الإبل والرقیق والخيل والغنم . فقال : « إذا آتاك الله مالا فليأثر نعمته عليك وكرامته » .

وأخرج البخارى والطبرانى عن زهير بن أبى علقمة مرفوعا « إذا آتاك الله مالا فليأثر عليك فإن الله يحب أن يرى أثره على عبده حسنا ، ولا يحب البؤس ولا التباؤس » .

وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ، وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٦١)

شرح المفردات

الشأن : الأمر العظيم ، وجمعه شئون ، تقول العرب : ما شأن فلان ، أى ما حاله ، وأفاض فى الشيء أو من المكان : اندفع فيه بقوة أو بكثرة ، وعزب الرجل بإبله يعزب :

أى بعد وغاب فى طلب الكلاء ، والذرة : التلة الصغيرة ، وبها يضرب المثل فى الصغر والخفة ، وتطلق على الدقيقة من الغبار الذى يرى فى ضوء الشمس الداخلى من الكوى إلى البيوت ، والكتاب : هو اللوح المحفوظ .

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه فى سابق الآيات أن فضله على عباده كثير ، وأن الواجب عليهم أن يشكروه بدوام طاعته وترك معصيته ، وأن القليل منهم هم الشاكرون - قفى على ذلك بتذكيرهم بإحاطة علمه بشئونهم وأعمالهم ماذق منها وما عظم فى جميع ملكوت السموات والأرض حتى يحاسبوا أنفسهم على تقصيرهم فى ذكره وشكروه وعبادته .

الإيضاح

(وما تكون فى شأن) أى وما تكون أيها الرسول الكريم فى أمر من أمورك الهامة ، خاصة كانت أو عامة مما تعالج بها شئون الأمة بدعوتها إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، إنذارا لها وتبشيرا وتعلما وعملا .

(وما تلو منه من قرآن) أى وما تلو من أجل ذلك الشأن من قرآن أنزل عليك تعبدا به أو تبليغا له .

وفى التعبير بالشأن وهو الأمر ذو البال دلالة على أن جميع أموره صلى الله عليه وسلم كانت عظيمة حتى ما كان منها من مجرى العادات ، لأنه صلى الله عليه وسلم كان فيها قدوة صالحة .

وبعد أن خاطب رسوله صلى الله عليه وسلم - انتقل إلى خطاب الأمة كلها فى شئونها وأعمالها فقال :

(ولا تعملون من عمل إلا كننا عليكم شهودا إذ تقيضون فيه) أى ولا تعملون

أى عمل ، خيرا كان أو شرا ، شكرا كان أو كفرا ، وإن كان كمثل الذرة ، إلا كما رقباء عليكم إذ تخوضون فيه فنحفظه عليكم ونجازيكم به .

(وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء) أى وما يبعد عن علمه ولا يخفى عليه أقل شىء يبلغ وزنه ثقل ذرة فى الوجود السفلى والعلوى .

وفى التعبير بالإفاضة دليل على أن ما يفيض الإنسان مهتما به مندفعاً فيه - جدير بالأن يغفل عن مراقبة ربه فيه وإطلاعه عليه ، وكذلك فى التعبير بـيعزب الدال على الخفاء والبعد دليل على أن ما شأنه أن يغيب ويبعد عنا من أعمالنا لا يغيب عن علمه تعالى ، وقدم ذكر الأرض لأن الكلام مع أهلها .

ثم أكد سبحانه ما سبق وبين إحاطة علمه بكل شىء فقال :

(ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين) أى ولا شىء أصغر من الذرة مما لا تبصرونه من دقائق الكون وخفاياه ، ولا أكبر من ذلك وإن عظم مقداره كعرشه تعالى ، إلا وهو معلوم له ومحصى عنده فى كتاب عظيم الشأن وهو الكتاب الذى كتب فيه مقادير الموجودات كلها إكمالاً للنظام وبياناً لضبط جميع الأعمال .

وفى معنى الآية قوله : « فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ . وَمَا لَا تُبْصِرُونَ » :

وفى ذلك إشارة إلى أن فى الوجود أشياء لا تتركها الأبصار . وقد أثبت العلم الحديث بوساطة الآلات التى تكبر الأشياء أضعافاً مضاعفة (المكروسكوبات) أن هناك أشياء لا يمكن رؤيتها إلا إذا كبرت عن حقيقتها آلاف المرات كالجراثيم (المكروبات) ولم تكن تخاطر على البال فى عصر التنزيل ، وقد ظهرت للناس الآن فهى من روائع الإعجاز العظيمة الدالة على أنه من كلام العليم الخبير .

أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ
آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ،
لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ، ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٤)

شرح المفردات

الأولياء : جمع ولي من الولي ، وهو القرب ، يقال تباعد بعد ولي : أى بعد قُرب ،
وأولياء الله هم المؤمنون المتقون ، والبشرى : هى الخبر السار الذى تنبسط به بشرة
الوجه فتتهلل وتبرق أساريره .

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه لعباده سعة علمه ، ومراقبته لعباده ، وإحصاء أعمالهم
وجزاءهم عليها ، وذكركم بما يجب عليهم من شكره على تفضله عليهم - ذكر هنا حال
الشاكرين المتقين الذين لهم حسن الجزاء يوم القيامة .

الإيضاح

(أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) أى إن أولياء الله الذين
يتولونه بإخلاص العبادة له وحده والتوكل عليه ولا يتخذون له أندادا يحبونهم كحبه ،
ولا يتخذون من دونه وليا ولا شفيعا يقر بهم إليه زلفى - لا خوف عليهم فى الآخرة
مما يخاف منه الكفار والفساق والظالمون من أهوال الموقف وعذاب الآخرة كما قال
تعالى : « لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ » ولا هم يحزنون من لحوق مكروه أو ذهاب
محبوب ، ولا يعترهم ذلك فيها لأن مقصدهم نيل رضوان الله المستتبع للكرامة
والزلفى ، ولا ريب فى حصول ذلك ولا خوف من فواته بموجب الوعد الإلهى .

وكذلك فى الدنيا لا يخافون مما يخاف منه غيرهم من الكفار وضعفاء الإيمان وعبيد الدنيا من مكروهه يتوقع كما قال تعالى : « فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا اللَّهَ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » .
 (الذين آمنوا وكانوا يتقون) التقوى — هى اتقاء كل ما لا يرضى الله من ترك واجب وفعل محرم ، واتقاء مخالفة سنن الله تعالى فى خلقه من أسباب الصحة والقوة والنصر والعزة وسيادة الأمة ، أى أولياء الله الذين جمعوا بين الإيمان الصحيح بالله وملائكته وكتبه ، وملكة التقوى له عز وجل وما تقتضيه من عمل .

(لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة) أى لهم البشرى فى الحياة الدنيا بالنصر وحسن العاقبة فى كل أمر — وباستخلافهم فى الأرض ما أقاموا شرع الله وسننه ونصروا دينه وأعلوا كلمته ، وبإلهام الحق والخير كما ورد من حديث ابن مسعود مرفوعا عند الترمذى والنسائى : « إِنْ لِلشَّيْطَانِ لَمَّةٌ بِابْنِ آدَمَ وَلِلْمَلِكِ لَمَّةٌ ؛ فَأَمَّا لَمَةُ الشَّيْطَانِ فَأَيْعَادُ بِالْشَّرِّ وَتَكْذِيبُ بِالْحَقِّ ؛ وَأَمَّا لَمَةُ الْمَلِكِ فَأَيْعَادُ بِالْخَيْرِ وَتَصْدِيقُ بِالْحَقِّ ، فَمَنْ وَجَدَ ذَلِكَ فَلْيَعْلَمْ أَنَّهُ مِنَ اللَّهِ ، فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ تَعَالَى ، وَمَنْ وَجَدَ الْآخِرَى فَلْيَتَعَوَّذْ مِنَ الشَّيْطَانِ » . وفى الآخرة بما أشارت إليه الآية الكريمة : « إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ . نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهُى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ . نَزَّلْنَا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ » .

(لا تبديل لكلمات الله) أى لا تغيير ولا خلف فى مواعيده تعالى ، ومن جعلتها بشارة المؤمنين المتقين بمجنات النعيم والخير العميم .

(ذلك هو الفوز العظيم) أى ذلك الذى ذكر من البشرى بسعادة الدارين هو الفوز الذى ليس بعده فوز ، لأنه ثمرة الإيمان الحق والتقوى فى حقوق الله وحقوق الخلق .

وَلَا يَحْزُنُكَ قَوْلُهُمْ ، إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦٥)
 أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ ، وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ
 مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ ، إِنَّ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (٦٦)
 هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ، إِنَّ فِي ذَلِكَ
 لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُسْمَعُونَ (٦٧)

شرح المفردات

العزة : الغلبة والقوة ، والحرص : الخزر والتقدير للشئ الذى لا يجرى على
 قياس من وزن أو كيل أو زرع كحرص الثمر على الشجر والحب فى الزرع ، ويستعمل
 بمعنى الكذب أيضا لأنه يغلب فيه الخزر والتخمين ، وللبصر : ذو الإبصار ، تقول
 العرب : أظلم الليل وأبصر النهار وأضاء .

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه لرسوله صلى الله عليه وسلم صفة أوليائه وما بشرهم به ووعدهم
 فى الدنيا والآخرة ، وفى هذا إيماء إلى الوعد بنصره ونصر من آمن به من أوليائه
 وأنصار دينه على ضعفهم وفقيرهم ، وكان أعداؤهم يغترون بقوتهم فى مكة بكثرتهم ،
 وكانوا لغرورهم بها يكذبون بوعد الله ، وكان ذلك مما يحزنه كما قال : « قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ
 لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بآيَاتِ اللَّهِ
 يَمْجِدُونَ » .

ففى على ذلك بتسليته له صلى الله عليه وسلم عما يلقاه من أذى أعدائه ، وتبشيرهم
 بالنصر والعزة والوعيد لأعدائه .

الإيضاح

(ولا يحزنك قولهم) أى لا تحزن لقولهم ولا تبال بما يتفوهون به فى شأنك مما لاخير فيه .

(إن العزة لله جميعا) أى لأن الغلبة والقهر لله تعالى لا يملك أحد من دونه شيئا منها ، فهو يهبها لمن يشاء ويحرمها من يشاء وليست للكثرة دائما كما يدعون : « كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ » وقد وعد الله بها رسله والذين آمنوا بهم واتبعوهم من أوليائه كما قال : « كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ » وقال : « وَتُؤْمِرُ مَنْ تَشَاءُ وَتُنْذِرُ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ » .

(هو السميع العليم) أى هو السميع لما يقولون من تكذيب بالحق وادعاء للشرك فيكافئهم على ذلك ، وهو العليم بما يفعلون من إيذاء وكيد ، فهو مذلهم ومحبط أعمالهم .

ثم أقام الدليل على كون العزة لله جميعا وكون الجزاء بيده فقال :

(ألا إن لله من فى السموات ومن فى الأرض) أى ألا إن لله كل من فى السموات والأرض عبدا مملوكين له ، لا مالك لشيء من ذلك سواه ، فكيف يكون إلها معبودا ما يعبده هؤلاء المشركون ، من الأوثان والأصنام ، والعبادة للمالك دون المملوك وللرب دون المربوب .

ثم بين أنه لا شريك له أبدا

(وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء) أى إن هؤلاء المشركين الذين يعبدون غير الله تعالى بدعائهم فى الشدائد واستغاثتهم فى النوازل والتقرب إليهم بالقرابين والنذور - لا يتبعون شركاء له فى الحقيقة يدبرون أمور العباد ويكشفون الضر عنهم ، إذ لا شركاء له .

(إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون) أى ما يتبعون فى الحقيقة فيما يقولون إلا الظن فى دعواهم أنهم أولياء الله وشفعاء عنده ، فهم يقيسونه على ملوكهم الظالمين المتكبرين الذين لا يصل إليهم أحد من رعاياهم إلا بوسائل حجابيه ووزرائه ووسائطه .

ثم أكد ماسدق بقوله :

(وإن هم إلا يخرصون) أى وما هم فى اتباع هذا الظن الذى لا يغنى من الحق شيئا إلا متخرصون قائلون بغير علم بما يقولون .

والخلاصة — إنهم إنما اتبعوا ظنونهم الفاسدة وأوهامهم الباطلة ، فقاموا الرب فى تدبير أمور عباده على الملوك ، وجعلوا أن أفعال الله تعالى إنما تجرى بمقتضى مشيئته الأزلية على وفق علمه الذاتى وحكمته البالغة العادلة ، وأن جميع أوليائه وأنبيائه وملائكته عبيد مملوكون له تعالى : « أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا » أى إن أقرب أولئك الذين يدعونهم ويتوسلون إليه بهم كالمسيح والملائكة ومن دونهم — يتوسلون إليه راجين خائفين لا كأعوان الملوك الذين لا ينتظم أمر ملكهم بدونهم .

ثم أقام البرهان على مضمون ما قبله من نفي وجود شركاء له فى الخلق والتقدير وشفعاء عنده حين التصرف والتدبير فقال :

(هو الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا) أى هو الذى جعل لكم الوقت قسمين بمقتضى علمه ومشيئته بدون مساعد ولا شفع ، فجعل الليل مظلمة لأجل أن تسكنوا فيه بعد طول التعب والنصب والحركة للمعاش ، وجعل النهار مضيئا ذا إبصار لتنتشروا فى الأرض وتقوموا بجميع أعمال العمران والكسب والشكر للرب . وقد جاء بمعنى الآية قوله تعالى : « وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّبَنَاتِنَا فَضَلَّ مِنْ رَبِّكُمْ » .

(إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون) أى إن فى اختلاف الليل والنهار وحال أهلهما فيهما لدلائل وآيات على أن المعبود بحق هو الذى خلق الليل والنهار وخالف بينهما — لقوم يسمعون ما يتلى عليهم من التذكير بحكمته تعالى ووجه النعمة فى ذلك ، سماع تدبر وعظة لما يسمع .

وقد جاء بمعنى الآية قوله تعالى: «قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمُ بَضِيَاءٌ أَفَلَا تَسْمَعُونَ . قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمُ لَبِيلٌ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ . وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » .

قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ، هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ، إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا، أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦٨) قُلْ إِنْ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ (٦٩) مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٧٠)

شرح المفردات

الولد : يستعمل مفردا وجما ، وقد يجمع على أولاد وولدة وإلدة بالكسر
فيهما، وسبحان: كلمة تنزيه وتقديس ، وتستعمل للتعجب ، والسلطان: الحجة والبرهان.

المعنى الجملى

بعد أن حكى سبحانه وتعالى أن من المشركين من اتخذوا الأوثان والأصنام
شفعاء عند الله - قفى على ذلك بذكر ضرب آخر من أباطيلهم ، وهو زعمهم أنه تعالى
جده اتخذ ولدا ، وتلك مقالة اشترك فيها المشركون واليهود والنصارى على السواء .

الإيضاح

(قالوا اتخذ الله ولدا) أى وقال المشركون : الملائكة بنات الله ، وقالت اليهود عزير ابن الله ، وقالت النصارى المسيح ابن الله .

(سبحانه) أى تنزه ربنا عما لا يليق بربوبيته وألوهيته ، ويمكن أن يكون للمعنى - عجيب أن تصدر منهم تلك الكلمة الحقاء . ثم أكد هذا التنزيه بقوله :

(هو الغنى له مافى السموات ومافى الأرض) أى إن الله غنى عن خلقه جميعا فإن كل مافى الوجود من العالم العلوى والسفلى ملك له ، ولا حاجة له إلى شيء منه وجميعه فى حاجة إليه ، ولا يحتاجه شيء منه ، فالإنسان يحتاج إلى الولد إما للنصرة والمعونة وإما للاعتزاز به لدى الأهل والعشيرة ، وإما لأنه زينة يلهو به فى صغره ويفخر به فى كبره ، وإما للحاجة إليه فى قضاء مصالحه أو لانتظار رِفده وبره حين عجزه أو فقره ، وإما لبقاء ذكره بعد موته ، والله غنى عن كل ذلك ولا حاجة له إلى شيء من هذه المنافع فهو مُستغنى أزلا وأبدا .

(إن عندكم من سلطان بهذا) أى ليس عندكم من الدلائل والبراهين ما يؤيد صحة هذا القول الذى تقولونه بلا علم ولا وحى إلهى .

(أتقولون على الله ما لاتعلمون) أى أتقولون على الله قولا لا تعلمون حقيقته وتنسبون إليه تعالى ما لا يجوز إضافته إليه ، ولا سيما بعد مجيء ما ينقضه من الأدلة العقلية والوحى الإلهى .

وفى الآية إيماء إلى أن كل قول لا دليل عليه فهو جهالة ، وأن العقائد الدينية لا بد فيها من دليل قاطع ، وأن التقليد فيها غير سائغ .

(قل إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون) أى قل لهم إن الذين يفترون على الله الكذب بنسبة الشركاء إليه ، أو باتخاذهم ولدا لنفسه أو بدعوى أن

الأولياء يطلعون على أسرار خلقه ويتصرفون فى ملكه ، لا يفوزون بالمتع بالنعيم بشفاعه الولد أو الشركاء الذين اتخذوهم له تعالى ولا ينجون من عذاب الآخرة .

(متاع فى الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون) أى هؤلاء لهم متاع فى الدنيا حقير يتلهمون به فى حياة قصيرة هى الحياة الدنيا ، إذ مهما يبلغ هذا المتاع من العظمة ككثرة مال أو عظم جاهٍ فهو قليل بالنسبة إلى ما عند الله فى الآخرة للصادقين المتقين — ثم يرجعون إلى ربهم بالبعث بعد الموت وما فيه من أهوال الحشر والحساب ، فيذيقهم العذاب الشديد بسبب كفرهم بآيات الله وبالاقتراء عليه وتكذيب رسله بعد أن قامت عليهم الحجة .

وفى الآية إيماء إلى أن ما يظن أنه فلاح بالحصول على منافع الدنيا المسادية والمعنوية فهو لا يعتد به بالنسبة إلى ما عند الله من حظ عظيم ونعيم مقيم .

وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ
مَقَامِي وَتَذَكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ
وَشُرَّكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ، ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ
وَلَا تُنْظِرُونِ (٧١) فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى
اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٧٢) فَكَذَّبُوهُ فَجَعَلْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ
فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ، فَانْظُرْ
كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ (٧٣)

شرح المفردات

النبا : الخبر له خطر وشأن ، والمقام : الإقامة والمسكن ، والإجماع : العزيمة على الأمر عما لا تردد فيه .

أجمعوا أمرهم بليل فلما أصبحوا أصبحت لهم ضوضاء والغمة : الستر واللبس ، يقال إنه لقي نعمة من أمره : إذا لم يهتد له ، وقضاء الأمر : أدأؤه وتنفيذه ، قال تعالى « فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ » والإِنْظار : التأخير والإمهال ، خلائف ، أى يخلفون الذين هلكوا بالفرق ، المندرون : الخوفون بالله وعذابه .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه عناد المشركين لرسوله صلى الله عليه وسلم وتكذيبهم له بعد أن قامت البراهين على صدقه — قفى على ذلك بذكر أقوام الرسل قبله تسلياً له صلى الله عليه وسلم وبياناً بأن قومه لم يكونوا بدعاً فى عنادهم وتكذيبهم له ولكن سبقهم فى مثل فعلهم كثير من سالفى الأمم وكانت العاقبة فوز الرسل عليهم ، وأتم الله لهم النصر ، فلعن أولئك القوم يتدبرون حالهم فينزجروا بما فيه مزدجر لهم ويعترفوا بصدقه صلى الله عليه وسلم ويؤمنوا به قبل أن تفوت الفرصة السانحة فيندموا ، ولات ساعة مندم .

الإيضاح

(واتل عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه يا قوم إن كان كبر عليكم مقامى وتذكيرى بآيات الله فعلى الله توكلت) أى واقرأ أيها الرسول على المشركين من أهل مكة وغيرهم فيما أوعدتهم به من عقاب الله لهم على مقتضى سننه فى المكذبين لرسله من قبلك — خبر نوح حين قال لقومه يا قوم إن كان قد شق عليكم قيامى فيكم بالدعوة إلى عبادة ربكم وتذكيرى إياكم بآياته الدالة على وحدانيته ووجوب عبادته — فإننى قد وكلت أمري إلى الله الذى أرسلنى واعتمدت عليه وحده بعد أن أدت رسالته بقدر طاقتى .

(فأجمعوا أمركم وشركائكم) أى فأعدوا أمركم واعزموا على ما تقدمون عليه فى أمرى مع شركائكم الذين تعبدونهم من دون الله كما أدعوربى وأتوكل عليه .

(ثم لا يكن أمركم عليكم غمة) أى ثم لا يكن أمركم الذى تعتزمونه خفياً عليكم فيه حيرة ولبس ، بل كونوا على بصيرة كيلا تتحولوا عنه .

(ثم اقصوا إلى ولا تنظرون) أى أدوا إلى ذلك الأمر بعد إجماعه واعتزامه ، وبعد استبانه التى لا غمة فيها ولا التباس بأن تنفذوه بالفعل بعد استيفاء مقدماته كلها ، ولا تمهلونى بتأخير هذا القضاء .

والخلاصة — إن نوحا طلب إلى قومه على كثرتهم وقوتهم أن يفعلوا ما استطاعوا من الإيقاع به ، مطالبة المدلّ بيبأسه وقوته المعتصم بإيمانه بوعد ربه وتوكله عليه ، فأمرهم بإجماع أمرهم بصادق العزيمة وقوة الإرادة ، وأن يضموا إلى هذه القوة النفسية قوة الإيمان بشركتهم وآلهتهم ، وألا يكون فى أمرهم الذى أجمعوا عليه شيء من الغمة والخفاء الذى قد يوجب الوهن والتردد فى التنفيذ .

(فإن توليتم فما سألتكم من أجر إن أجرى إلا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين) أى فإن أعرضتم عن تذكيرى بعد دعائى إياكم وتبليغ رسالته ربه إليكم ، فلن يضرنى فإنى لم أسألكم على ما دعوتكم إليه أجرا ولا جزاء ، وما جزاء على وثابى إلا على ربه الذى أرسلنى إليكم فهو يوفىنى إياه ، أتمتم أو توليتم ، وأمرت أن أكون من المنتقدين بالفعل لما أدعوكم إليه .

(فكذبوه فنجيناه ومن معه فى الفلك) أى فأصروا على تكذيبه بعد أن أقام عليهم الحجة بقوله وعمله على حقيقة دعوته ، فنجيناه هو ومن آمن معه فى السفينة التى كان يصنعها بأمرنا .

(وجعلناهم خلائف وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا فانظر كيف كان عاقبة المنذرين) أى وجعلنا الذين نجينا مع نوح فى السفينة خلائف فى الأرض من قومه الذين كذبوه بعد أن أنذرناهم فأغرقناهم وحقت عليهم كلمة ربك ، فانظر أيها الرسول بعين بصيرتك وعقلك كيف كانت عاقبة الذين أنذرهم رسولهم وقوع عذاب الله بهم وأصروا على

تكذيبه ، وهكذا تكون عاقبة من يصرون على تكذيبك من قومك ، وعاقبة المؤمنين المتقين لك .

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَنَجَّاهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ (٧٤)

شرح المفردات

الطبع على القلوب : هو عدم قبولها شيئاً غير ما رسخ فيها واستحوذ عليها ، والمعتدى : المتجاوز حدود الحق والعدل اتباعاً لهوى النفس وشهواتها .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر عز اسمه قصص نوح مع قومه وبين عاقبة أمرهم حين كذبوه ونصر الله له عليهم ، بين هنا عبرة أخرى من عبر مكذبي الرسل وسنة من سنن الله فيهم عسى أن يعتبر بها أهل مكة فيعلموا أن الله سننا لا تبدل فيها ولا تحويل فيتقوا مثل تلك العاقبة التي حلت بمن قبلهم من المكذبين من قوم نوح وغيرهم ، واتقاؤه في مكنتهم وهو بأيديهم يمكنهم أن يجتنبوه ويتعدوا عن أسبابه كالكفر والاعتداء والظلم ونحوها .

الإيضاح

(ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَنَجَّاهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ) أى ثم بعثنا من بعد نوح رسلاً مثله إلى أقوامهم الذين كانوا مثل قومه في تكذيب رسلهم فقد أرسل هود إلى عاد ، وصالح إلى ثمود ، ولم يرسل رسول منهم إلى كل الأقسام الذين كانوا في زمانه إلا شعيباً فإنه أرسل إلى قومه أهل مدين وإلى جيرانهم أصحاب المؤتفكة فقد كانوا

متحدين معهم لغة ووطنا ، نجاء كل رسول منهم قومه بالحجج الدالة على صدقه فى رسالته على حسب ما يتسنى لهم فهمه من الأدلة العقلية والحسية .

(فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل) أى فما استقام قوم من أولئك الأقوام أن يؤمن المتأخر منهم بما كذب به المتقدم من قبل ممن كان مثله فى سبب كفره وهو استكبار الرؤساء وتقليد الدهماء .

(كذلك نطبع على قلوب المعتدين) أى مثل هذا الطبع وعلى ذلك النهج نطبع على قلوب المعتدين أمثالهم فى كل قوم كقومك إذ كانوا مثلهم فى اللجاج والعتو والاستكبار فى الأرض « وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا » .

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (٧٦) قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ (٧٧) قَالُوا أَجِئْتَنَا لْتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمُ الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ (٧٨)

شرح المفردات

الملائ : أشراف القوم الذين يجتمعون على رأى ، ولفته عن كذا : صرفه .

المعنى الجملى

أفردت قصة موسى وهرون مع فرعون وملئه وفصلت تفصيلا وافيا لما لها من شديد الخطر وعظيم الأثر ، إذ فيها من العبرة أن قوة الحق تثل العروش وتهد أركان

الباطل وإن علا أصحابه ، فقد كان الفلج والظفر لموسى على ذلك الطاغية الذى قال
أنا ربكم الأعلى ، وانتهى أمره بالفرق وصار مثلاً للآخرين .

الإيضاح

(ثم بعثنا من بعدهم موسى وهرون إلى فرعون وملئه بآياتنا فاستكبروا وكانوا
قوماً مجرمين) أى ثم بعثنا من بعد أونثك الرسل صلوات الله عليهم موسى وهرون
إلى فرعون مصر وأشراف قومه ، وخصهم بالذكر لأن قومهم القبط كانوا تبعاً لهم
يكفرون بكفرهم ويؤمنون بإيمانهم إن آمنوا ويرجعون إليهم فى إقامة المصالح والمهمات
مؤيدين له بآياتنا التسع المبينة فى سورة الأعراف ، فأعرضوا عن الإيمان كبرا وعلوا مع
علمهم بأن ما جاء به هو الحق لما كانوا عليه من العلم بصناعة السحر ولكنهم كانوا
راسخين فى الإجرام والظلم والفساد فى الأرض كما قال تعالى « وَجَعَدُوا بِهَا
وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلُمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ » .

(فلما جاءهم الحق من عندنا فالوا إن هذا لسحر مبين) أى فلما جاءهم موسى
بالحجج والبينات الدالة على الربوبية والالوهية قالوا من فرط عتوهم وعنادهم : إن هذا
لسحر واضح لمن رآه وعينه .

(قال موسى أتقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا ؟ ولا يفلح الساحرون) أى قال
لهم موسى على وجه الإنكار والتوبيخ : أتقولون للحق الواضح الظاهر وهو أبعد
الأشياء عن السحر الذى هو باطل حين جاءكم دون أن تتروا وتندبروا فيه : إنه سحر
وما ترونه بأعينكم من آيات الله وترجف له قلوبكم من عظمته لا يمكن أن يكون
سحراً من جنس ما تعرفونه وتصنعونه بأيديكم ، وقد مضت سنة الله بأن السحرة
لا يفوزون فى الأمور الهامة كالدعوة لدين والتأسيس لمملك ، وذلك ما تنهموننى به
على ضعفى وقوتكم ، فإن السحر شعوذة لاتلبث أن تفتضح وتزول .

و بعد أن ألحهم بحجته ولم يجدوا ردّاً مقنعاً اضطروا إلى التثبت بذيل التقليد

للآباء والأجداد وتلك حجة العاجز المضعوف فى رأيه ذى الخطل فى تصرفه ، فلم يكن منهم إلا تلك المقالة .

(قالوا أجبنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا وتكون لكما الكبرياء فى الأرض .
وما نحن لكما بمؤمنين) أى قالوا له منكرين : ما جئنا إلا لتصرفنا وتحولنا عما وجدنا عليه آباءنا وأجدادنا من ديننا لنتبع دينك وتكون لك ولأخيك كبرياء الرياسة الدينية وما يتبعها من كبرياء الملك والعظمة الدنيوية التابعة لها فى أرض مصر كلها ، وما نحن بمتبعين لكما اتباع إيمان وإذعان فيما يخرجنا من دين آباءنا الذى تدين به عامتنا ، وتتمتع بكبريائه خاصتنا ، وهم الملك وأشراف قومه .

والخلاصة — إنه لا غرض لك من تلك الدعوة إلا هذا وإن لم تعترف به ، وقد وجهوا الخطاب أولاً لموسى لأنه هو الداعى لهم ، وأشركوا معه أخاه فى فائدة الدعوة والغرض منها وهى الكبرياء فى الأرض لأنهما سيشتركان فيها .

وَقَالَ فِرْعَوْنُ ااْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ (٧٩) فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى ااَلْقُوا مَا اَنْتُمْ مُلْقُونَ (٨٠) فَلَمَّا اَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السَّحْرُ اِنَّ اللهَ سَيُبْطِلُهُ اِنَّ اللهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ (٨١) وَيُحِقُّ اللهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (٨٢)

المعنى الجملى

كانت الآيات الماضية فى ذكر الحوار بين موسى وفرعون — وهنا ذكر ما فعل فرعون فى مقاومة دعوة موسى لصدّ الناس عن اتباعه باعتبار أنه ساحر فأحضر السحرة ليقاوموا عمله ، ويتغلبوا عليه فيبطلوا حججه .

الإيضاح

(وقال فرعون ائتونى بكل ساحر عليم) أى قال لملئه بعد أن يئس من إلزامه بالقول : اعملوا على دفع حجته بالفعل فأتوني بكل ساحر عليم بفنون السحر ، حاذق ماهر فيها .

(فلما جاء السحرة قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون) أى فأتوا بهم فلما جاءوا قال لهم موسى هذه المقالة بعد أن خيره بين أن يلقي ما عنده أولاً أو يلقوا ما عندهم كما جاء ذلك فى سورتي الأعراف وطه — ليظهر الحق ويبطل الباطل .

(فلما ألقوا قال موسى ما جئتم به السحر) أى فلما ألقوا حبالهم وعصيهم السحرية قال لهم موسى غير مكترث بهم ولا بما صنعوا : إن هذا الذى فعلتم وأقيتموه أمام النظارة هو السحر لا ما جئت به من الآيات البينات من عند الله وقد سماه فرعون وملؤه سحرا .

(إن الله سيظهر بطلانه بما يظهره على يدي من المعجزة حتى يظهر للناس أنه صناعة لا آية خارقة للعادة ، وحجة واضحة على بطلان حجتي .

ثم على ما قال ببيان سنن الله فى تنازع الحق والباطل والصلاح والفساد فقال : (إن الله لا يصلح عمل المفسدين ، ويحق الله الحق بكلماته) أى إن الله لا يجعل عمل المفسدين صالحاً للبقاء فيقويه بالتأييد الإلهي ويديمه ، بل يزيله ويمحقه ، ويثبت الحق الذى فيه صلاح الخلق وينصره على ما يعارضه من الباطل بكلماته التكوينية وهى مقتضى إرادته التشريعية التى يوحىها إلى رسله ، ومن ثم سينصر موسى على فرعون وينقذ قومه من عبوديته .

(ولو كره المجرمون) أى ولو كره كل من اتصف بالإجرام كفرعون وملئه .

فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ ، وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَمَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ (٨٣)

وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ (٨٤) فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا . رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٨٥) وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٨٦) وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ يُثُوتَا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (٨٧)

شرح المفردات

الذرية فى اللغة : صغار الأولاد ، وتستعمل فى الصغار والكبار عرفاً ، والفتون : الابتلاء والاختبار الشديد للحمل على الفعل أو الترك ، والمراد هنا الاضطهاد والتعذيب ، والعلو : القهر والاستبداد ، ومسلمين : أى مذعنين ومستسلمين ، وتبوأ الدار : اتخذها مباءة ومسكناً يبوء ويرجع إليها كلما فارقها لحاجة ، والقبلة : ما يقابل الإنسان ويكون تلقاء وجهه ، ومنه قبلة الصلاة .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه مافعله فرعون لمقاومة دعوة سيدنا موسى - قفى على ذلك
بذكر ما كان من بنى إسرائيل مع موسى توطئة لإخراجهم من أرض مصر .

الإيضاح

(فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملئهم أن يفتنهم)
أى إن إصرار فرعون وقومه على الكفر بموسى بعد خيبة السحرة وظهور حقه على
باطلهم ثم عزمه على قتله ، كما جاء فى قوله : « وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذُرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى
وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ » ..

كل هذا أوقع الرعب والخوف فى قلوب بنى إسرائيل قوم موسى فما آمن له إلا ذرية من قومه، وهم الأحداث والشبان وكانوا خائفين من فرعون وأشراف قومهم الجبناء المرائين الذين هم عرفاؤهم عند فرعون فيما يطلب منهم - أن يضطهدوهم ويعذبوهم ليرتدوا عن دينهم .

(وإن فرعون لعال فى الأرض وإنه لمن السرفين) أى وإن فرعون لشديد العتو قوى القهر فى أرض مصر فهو جدير بأن يخاف منه كما حكى الله عنه بقوله : وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَنْتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَأَنتَ كَاذِبٌ كَرِيمٌ ؟ قَالَ سَنَقْبُلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ » كما أنه من السرفين المتجاوزين الحد فى الظلم والفساد بالقتل وسفك الدماء وغبط الحق واحتقار الخلق، ومن ثم ادعى الربوبية واسترق أسباط الأنبياء .

(وقال موسى يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين) أى وقال موسى لمن آمن من قومه وقد رأى خوفهم من الفتنة والاضطهاد : إن كنتم آمنتم بالله حق الإيمان فعليه توكلوا ، وبوعده فثقوا إن كنتم مستسلمين مدعين ، إذ لا يكون الإيمان يقينا إلا إذا صدقه العمل وهو الإسلام ، وليس فى الآية دلالة على إيمان جميع قومه ، إذ الإيمان بالله غير الإيمان لموسى المتضمن معنى الإسلام والاتباع الذى أشير إليه بقوله : « إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ » فهم قد طلبوا منه بعد ما نجاهم من الفرق أن يجعل لهم آلهة من الأصنام ثم اتخذوا العجل المصنوع وعبدوه .

(فقالوا على الله توكلنا ربنا لاتجعلنا فتنة للقوم الظالمين) أى فقالوا على النور محتملين أمره حين علموا أن إنجاز الوعد موقوف على ذلك : على الله توكلنا ، ودعوا بأن يحفظهم ربهم من فتنة القوم الظالمين .

ذاك أن التوكل على الله وهو أعظم علامات الإيمان لا يكمل إلا بالصبر على الشدائد ، والدعاء لا يستجاب إلا إذا كان مقرونا باتخاذ الأسباب بأن تعمل ما تستطيع عمله ، وتطلب إلى الله أن يسخر لك ما لا تستطيع .

و خلاصة ما قالوا — ربنا لا تسلطهم علينا فيقتنونا ، ولا تقتننا بهم فنتولى عن اتباع نبينا أو نضعف فيه فرارا من شدة ظلمهم لنا ، ولا تقتنهم بنا فيزدادوا كفرا وعنادا وظلما بظهورهم علينا ويظنوا أنهم على الحق ونحن على الباطل .

وقد دلت التجارب على أن سوء حال المؤمنين من ضعف أو فقر تجعلهم موضعا لافتتان الكفار بهم باعتقاد أنهم خير منهم كما جاء فى قوله : « وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ؟ » .

(ونجنا برحمتك من القوم الكافرين) أى ونجنا برحمتك نخلصنا من أيدي القوم الكافرين قوم فرعون لأنهم كانوا يستعبدونهم ويستعملونهم فى المهن الحقةرة ، ومثل هذا قوله تعالى حكاية عن سيدنا إبراهيم والذين آمنوا معه : « رَبَّنَا عَلَيكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنبَنَّا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَآخِرُ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » .

(وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوأا لقومكما بمصر بيوتا) أى قلنا لهما : اتخذا لقومكما بيوتا فى مصر تكون مساكن وملاجئ تعتصمون بها .

(واجعلوا بيوتكم قبلة) أى واجعلوا بيوتكم متقابلة فى وجهة واحدة .
(وأقيموا الصلاة) فيها متجهين إلى جهة واحدة لأن الاتحاد فى الاتجاه يساعد على اتحاد القلوب .

(وبشر المؤمنين) بحفظ الله إياهم من فتنة فرعون وملئه الظالمين لهم وتنجيهم من ظلمهم .

وإنما خص موسى بالتبشير لأن بشارة الأمة وظيفة صاحب الشريعة ، وأشرك معه هرون فى أمر قومهما بالتبوأ لأنه مما يتولاه الرؤساء بتشاور بينهم فهو تدير على يقوم به هو ووزيره المساعد على تنفيذه .

وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا
فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، رَبَّنَا لِيُضِلُّوْا عَنْ سَبِيلِكَ ، رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ
وَأَشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٨٨) قَالَ قَدْ
أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمْ فَأَسْتَقِيمَ وَلَا تَتَّبِعَانَّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْمَلُونَ (٨٩)

شرح المفردات

الزينة : الحلل والحلى والأثاث والرياش والماعون ، والأموال : ما وراء ذلك من
الذهب والفضة والأنعام والزرع ونحو ذلك ، والطمس : الإزالة ، يقال طمس الأثر
وطمسته الريح : إذا زال ، والشد على القلب : الطمع عليه وقسوته حتى لا ينشرح للإيمان .

المعنى الجملى

بعد أن أبان سبحانه جبروت فرعون وملئه وخوف بنى إسرائيل من بطشهم
وأنهم امتنعوا لأجل ذلك عن الإيمان ، إلا قليلا من شبانهم استجابوا لدعوة موسى
بعد حث لهم وتحريض على الإيمان وطلب موسى من بنى إسرائيل أن يتخذوا بيوتهم
لهم بمصر يقيمون فيها مراسم دينهم ، ثم بشرهم بالفوز والغلبة والنصر - قفى على ذلك
بدعوة موسى على فرعون وقومه مع ذكر السبب الذى دعاه إلى ذلك ، وهو الجحود
والعناد لدعوته لما أوتوه من بسطة النعمة التى أبطرتهم فتركوا الدين وراءهم ظهر يا .

الإيضاح

(وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملاءه زينة وأموالا فى الحياة الدنيا) أى
وقال موسى بعد أن أعد قومه بنى إسرائيل للخروج من مصر على قدر ما يستطيع من
الإعداد الدينى والدنيوى ، وغرس فى قلوبهم الإيمان وحب العزة والكرامة ونحو

ذلك وتوجه إلى الله أن يتم أمره : ربنا إنك أعطيت فرعون وأشراف قومه وكبراءهم زينة من حلّى وحلل وآتية وماعون وأثاث ورياش وأموالا كثيرة من صامت وناطق أى من ذهب وفضة وزروع وأنعام يتمتعون بها وينفقون منها فى حظوظهم وشهواتهم . (ربنا ليضلوا عن سبيلك) أى لتكون عاقبة ذلك إضلال عبادك عن السبيل الموصلة إلى مرضاتك باتباع الحق والعدل وصالح العمل .

وقد جرت سنة الله بأن كثرة الأموال تورث الكبرياء والخيلاء والبطر والطغيان وتُخضع رقاب الناس لأربابها كما قال تعالى: «إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ» . وقد أثبت البحث والتنقيب فى نواويس قبور المصريين التى كشفت حديثا ، وفيما حفظ فى دور الآثار المصرية وغيرها من العواصم الأوربية ، ما يشهد بكثرة تلك الأموال ووجود أنواع من الزينة والحلى لم تكن لتخطر على البال ، ويدل على أرقى أنواع المدنية والحضارة التى لاتضارعها مدنية العصر الحاضر مع ما بلغه العلم والرقى العقلى فى الإنسان .

(ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم) أى ربنا احق أموالهم بالآفات التى تصيب زروعهم والجوائح التى تهلك أنعامهم وتنقص مكاسبهم فيذوقوا ذل الحاجة ، واضطرب على قلوبهم وزدها قسوة على قسوتها وإصرارا وعنادا فيستحقوا شديد عقابك ولا يؤمنوا إلا إذا رأوا عذابك ولا ينفعهم إيمانهم إذ ذاك .

وسبب غضبة موسى أنه عرض عليهم آيات الله وبيناته عرضا مكررا وردد عليهم المواعظ والنصائح ردحا من الزمن وحذرهم عذاب الله وانتقامه وأنذرهم عاقبة ما هم عليه من الكفر والضلال المبين ثم لم يزدهم ذلك إلا كفرا وعتوا واستكبارا فى الأرض ، ولم يبق له مطمع فيهم ، وعلم بالاختيار أنه لا يكون منهم إلا الضلال وأن إيمانهم كالحال - فاشتد عليهم ومقتهم ودعا عليهم بما علم أنه لا يكون غيره ، إذ لم يبق له فيهم حيلة وأنهم لا يستأهلون إلا أن يخذلوا ويخلى بينهم وبين ضلالهم يتسكعون فيه ويسيرون قدما فى طريق النى والهلاك .

وخلاصة ذلك — كأنه قيل فليثبتوا على ضلالهم وليطيع الله على قلوبهم فلا يؤمنوا وما على منبهم، هم أهل لذلك وأحق به، ومماثلة لإمثلة قول الأب المشفق على ولده الذى انحرف عن جادة الاستقامة ولم يقبل منه نصيحة: فلتعض في غوايتك ولتعض في الأرض فسادا، وهو لا يريد غوايته بل حرّدا وغضبا عليه .

وقد روى أن موسى دعا بهذا الدعاء وهرون عليه السلام كان يؤمن على دعاء أخيه، ومن ثم قال تعالى :

(قال قد أجيبت دعوتكما فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون) أى قال لها عز اسمه قد قبلت دعوتكما فى فرعون وملئه وأموالهم ، فامضيا لأمرى واثبتا على ما أنتما عليه من الدعوة إلى الحق ، ومن إعداد شعبكما للكفاح والجلاد والخروج من مصر ، ولا تسلكا سبيل الذين لا يعلمون سننى فى خلقى فيستعجلا الأمر قبل ميقاته ويستبطنه وقوعه فى حينه .

وفى سفر الخروج من التوراة ما يدل على استجابة دعاء موسى فقد كانت تنزل النوازل على مصر وأهلها فيلجأ فرعون إلى موسى حين كل نازلة منها ليدعور به فيكشفها عنهم فيؤمنوا به حتى إذا كشفها قسى الرب قلب فرعون فأصر على كفره ، وما قاله المفسرون فى تفسير الطمس على الأموال فهو من ترهات الأباطيل الإسرائيلية التى روجها كعب الأخبار وأمثاله من كان مقصدهم صد اليهود عن الإسلام بما يروونه فى تفسيره مخالفا لما هو متفق عليه عندهم وعند غيرهم من المؤرخين فى وقائع عملية وأمور حسية .

وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠) الْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنْ

الْمُفْسِدِينَ (٩١) فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَافَكَ آيَةً ، وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ (٩٢)

شرح المفردات

يقال : جاز المكان وجاوزه وتجاوزه : إذا قطعه حتى خلفه وراءه ، ويقال تبعته حتى أتبعته إذا كان قد سبقك فلحقته ، المسلمين : أى المنقادين لأمره ، وننجيك : نجملك على نجوة من الأرض ، والنجوة : المكان المرتفع من الأرض ، والآية : المعبرة والعظة .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر عز اسمه ما دار من الحوار بين موسى وفرعون وذكر ما أتى به موسى من الحجج والبيانات الدالة على صدقه وغلبه لسحرة فرعون ولم يزد ذلك إلا كبرا وعتوا فدعا عليه بالطمس على الأموال والشد على القلوب وذكر استجابة الله دعوته — قفى على ذلك بذكر خاتمة القصة وهو ما كان من تأييد الله لموسى وأخيه على ضعفهما وقوة فرعون وقومه ، إذ كانت دولته أقوى دول العالم فى عصره .

الإيضاح

(وجاوزنا بنى إسرائيل البحر فأتبعهم فرعون وجنوده بغيا وعدوا حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين)
أى جاوز بنو إسرائيل البحر بمعوته تعالى وقدرته وحفظه وكان آية من آياته لنبيه موسى عليه السلام بفرقه تعالى بهم البحر وانفلاقه لهم ، فلحقهم فرعون وجنوده ظالمين عادين عليهم ليفتكوا بهم أو يعيدوهم إلى مصر ليسوموهم سوء العذاب ويجعلوهم

عبيدا لهم ، وخاض البحر وراءهم حتى إذا أشرف على الفرق قال آمنت أنه لا إله بحق إلا الرب الذي آمنت به جماعة بني إسرائيل بدعوة موسى ، وأنا من أذعنوا لأمره بعد ما كان مني من جنحود بآياته وعناد لرسوله .

وكرر المعنى الواحد بثلاث عبارات حرصا منه على القبول المغضى إلى النجاة ، ولكن هيهات فقد فات الوقت وجاء الإيمان حين اليأس وهو لا يجدى فتिला ولا قطميرا — وهذا ما بينه سبحانه بقوله موجبا له .

(الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين) أى وقيل له أأسلم الآن حين نلت من الحياة وأيقنت بالمات ، وقد عصيت قبل ذلك وكنت من المفسدين فى الأرض الظالمين للعباد ، فدعواك الإسلام الآن لا تقبل ، فقد صار إسلامك اضطرارا لا اختيارا .

وخلاصة المعنى — الآن نُقرُّ لله بالعبودية وتستسلم له بالذلة وتخلص له الألوهية وقد عصيته قبل نزول نعمته بك فأسخطته على نفسك وكنت من المفسدين فى الأرض الصادين عن سبيله ، فهلا أقررت بما أقررت به الآن وباب التوبة لك منفتح .

(فالיום ننجيك بيدنك لتكون لمن خلفك آية) أى فاليوم نجعلك على نجوة من الأرض بيدنك ينظر إليك من كذب بهلاكك ، لتكون عبرة لمن بعدك من الناس يعتبرون بك فينزعجون عن معصية الله والكفر به والسعى فى الأرض بالفساد .

ووجه العبرة فى ذلك — أنه يكون شاهدا على صدق وعد الله لرسله ، ووعيده لأعدائهم كطغاة مكة التى أنزلت هذه الآيات لإقامة حجج الله عليهم قبل غيرهم .

(وإن كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون) أى وإن كثيرا من الناس لى غفلة عن حججنا وأدلتنا على أن العبادة له وحده خالصة ، فهم يملكون عليها وهم عنها معرضون ، فلا يتفكرون فى أسبابها ونتائجها وحكم الله فيها .

وفى ذلك إيماء إلى ذم الغفلة وعدم التفكير فى أسباب الحوادث وعواقبها واستبانة سنن الله فيها للظة والاعتبار .
ووا أسفا قد صار من نزل فيهم القرآن من بينهم بل فى مقدمتهم وهو حجة عليهم وهو منهم براء .

وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأً صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ، إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٩٣)

شرح المفردات

مبوءاً صدق : أى منزلاً صالحاً مرضياً . وأصل الصدق ضد الكذب ولكن قد جرت عادة العرب أنهم إذا مدحوا شيئاً أضافوه إلى الصدق فقالوا مكان صدق إذا كان كاملاً فى صفته صالحاً للغرض المقصود منه ، كأنهم أرادوا أن كل ما يظهر فيه من الخير فهو صادق ، والعلم هنا علم الدين .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه خاتمة فرعون وجنوده — قفى على ذلك بذكر عاقبة بنى إسرائيل ، وفى هذا عبرة لمكذبنى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم والجاحدين من قومه المفتريين بقوتهم وكثرتهم وثروتهم — فقد كان فرعون وقومه أكثر منهم عدداً وأشد قوة وأوفر ثروة ، وقد جعل الله سننه فى المكذبين واحدة ، ففكروا أيها المكذبون فى عاقبة أمركم وتدبروا ملياً خوف أن يحل بكم مثل ما حل بهم ، وها هو ذا أهلك أكثر زعمائهم وجعل العاقبة لأتباعه المؤمنين وأعطاءهم أعظم ملك فى العالمين .

الإيضاح

(ولقد بوأنا بنى إسرائيل مبعوا صدق) أى ولقد أسكناهم منزلا مرضيا وهو منزلهم من بلاد الشام الجنوبية وهى بلاد فلسطين ، وهو معنى قوله « وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَعَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا . (ورزقناهم من الطيبات) أى ورزقناهم من اللذائذ فيها ، وقد جاء وصفها فى كتبهم بأنها تفيض لبنا وعسلا ، وفيها كثير من الغلات والثمار والأنعام وصيد البر والبحر .

(فما اختلفوا حتى جاءهم العلم) أى فما اختلف بنو إسرائيل إلا بعد ما علموا بقراءة التوراة والوقوف على أحكامها ، ذلك أنهم كانوا قبل أن يبعث محمد صلى الله عليه وسلم مجمعين على نبوته والإقرار به وبعثته غير مختلفين فيه بالنعمة الذى كانوا يجدونه مكتوبا عندهم ، فلما جاءهم ما عرفوا كفر به بعض وآمن آخرون .

(إن ربك يقضى بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون) أى إن هذا النوع من الاختلاف لا سبيل لإزالته فى دار الدنيا ، بل سيقضى الله بينهم فى الآخرة فيميز الحق من الباطل ويدخل الأولين الجنة والآخريين النار وبئس القرار .

فَإِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ ، لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (٩٤) وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٩٥) إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ (٩٦) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٩٧)

المعنى الجملى

بعد أن قص سبحانه قصص الأنبياء السالفين وما لاقوه من أقوامهم من العناد والجمود والاستكبار والعتو ، وفى كل حال كان النصر حليف المؤمنين والخذلان نصيب الظالمين — قفى على ذلك بذكر صدقه فيما قال ووعد وأوعد وكون ذلك سنة الله فى المكذبين قبل ، وسيكون ذلك فيهم من بعده ، وليس فى هذا سبيل للافتراء والشك ، وقد ساق ذلك بطريق التلطف فى الأسلوب فوجه الكلام إلى الرسول صلى الله عليه وسلم والمراد قومه فجاء على نحو قولهم: إياك أعنى واسمعى يا جاره ، وقد جاء مثل هذا فى قوله تعالى « لَسَنُ أَشْرَكَ كَتَّ لِيَحْبَطَنَّ عَمَّا كَ » وقوله « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ » .

الإيضاح

(فإن كنت فى شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك) المراد بالكتاب جنسه أى الكتب السالفة كالتوراة والإنجيل ، أى فإن كنت أيها الرسول فى شك مما تنناه فى تلك الشواهد من قصة هود ونوح وموسى وغيرهم فرضا وتقديرا ، فاسأل الذين يقرءون كتب الأنبياء كاليهود والنصارى فإنهم يعلمون أن ما أنزلناه إليك حق لا يستطيعون إنكاره .

وقد جرت عادة العرب أن يقدروا الشك فى الشيء لينبؤوا عليه ما ينفى احتمال وقوعه فيقول أحدهم لابنه : إن كنت ابنى فكن شجاعا ، وجاء من هذا قول المسيح عليه السلام مجيبا ربه تعالى عن سؤاله إياه « أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إلهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قَدْ كُنْتُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ » فهو عليه السلام يعلم أنه لم يقله ولكنه يفرضه ليستدل على ذلك بأنه لو قاله لعلمه الله منه ، ويمجرى العلماء فى محاوراتهم بينهم وبين نظرائهم

أو بينهم وبين تلاميذهم على هذا النمط ، فيشككونهم فيما لا شك فيه عندهم لينتوا على ذلك أحكاما أخرى فيقولون: إن كانت الخمسة زوجا كانت منقسمة إلى متساويين، أى إن كون الخمسة زوجا يستلزم ذلك ، وهذا لا يدل على أن الخمسة زوج وهكذا ما فى الآية فهو يدل على أنه لو حصل الشك لكان الواجب هو فعل كذا وكذا ، وليس فيها دليل على وقوعه .

(لقد جاءك الحق من ربك فلا تكون من الممتريين) الامتراء الشك والتردد ، أى لقد جاءك الحق الواضح بأنك رسول الله وأن هؤلاء اليهود والنصارى يعلمون صحة ذلك ويجدون نعمتك فى كتبهم ، فلا تكون من الشاكين فى صحة ذلك . وهذا النهى وما بعده يدلان على أن فرض الشك والسؤال فيما قبلهما تعريض بالشاكين والمكذبين له من قومه ممن لم تستر بصيرتهم بنبوته صلى الله عليه وسلم فأظهروا الإيمان بالسنتهم ولم يثبت فى قلوبهم فهم فى شك فيه .

(ولا تكون من الذين كذبوا بآيات الله فتكون من الخاسرين) أى ولا تكون أيها الرسول ممن كذب بآيات الله وحججه فى الأكوان مما يدل على وحدانيته وقدرته على إرسال الرسل لهداية البشر فتكون ممن خسروا أنفسهم بالحرمان من الإيمان وما يتبعه من سعادة الدنيا والآخرة ، وذلك هو الحرمان الممين ، فالشك والامتراء فيما أنزل إليك كالتكذيب بآيات الله حجودا بها وعنادا ، كلاهما سواء فى الحرمان المذكور لحرمان الجميع من الهداية بها والوصول إلى السعادة فى الدارين .

(إن الذين حققت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون) أى إن الذين ثبتت عليهم كلمة ربك بعذابهم على حسب سننه تعالى فى خلقه بفقد الاستعداد للاهتداء ، لا يؤمنون لرسوخهم فى الكفر والطغيان وإحاطة خطاياهم بهم وإعراضهم عن آيات الله التى خلقها فى الأكوان بما يرشد إلى وحدانيته وكمال قدرته . (ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم) أى ولو جاءتهم كل آية من

الآيات الكونية كآيات موسى عليه السلام التى اقترحوا مثلها عليك ، والآيات المنزلة عليك كآيات القرآن العقلية الدالة بإعجازها على أنها من عند الله وعلى حقيقة ما تدعوهم إليه وتذودهم به حتى يروا العذاب الأليم بأعينهم ويذوقوه حين ينزل بهم فيكون إيمانهم اضطرارا لا اختيارا منهم فلا يترتب عليه عمل منهم يطهرهم ويركيهم ويقال لهم إذا ذاك « آ لَانْ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ » .

فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا
كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ (٩٨)
وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَا آمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ، أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ
التَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٩٩) وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُوْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ
وَيَجْعَلُ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (١٠٠)

شرح المفردات

لولا : كلمة تفيد التحضيض والتوبيخ كهلًا ، والمراد بالقرية أهلها وهو كثير الاستعمال بهذا المعنى ، والخزى : الذل والهوان ، والحين : مدة من الزمن والمراد بها العمر الطبيعي الذى يعيشه كل شخص ، والإذن بالشئ : الإعلام بإجازته والرخصة فيه ورفع الحجر عنه ، والرجس : لغة الشئ القبيح المستنقذر ، والمراد به هنا العذاب .

المعنى الجملى

هذه الآيات الثلاث تكملة لما قبلها وبيان لسنن الله تعالى فى الأمم مع رسلهم وفى خلق البشر مستعدين للإيمان والكفر والخير والشر وفى تعلق مشيئة الله وحكمته بأفعاله وأفعال عباده ووقوعها على وفقهما ، فبعد أن بين أن الذين حققت عليهم كلمة

ربك لا يؤمنون حتى يروا العذاب الأليم — أتبعه بذكر هذه الآيات للدلالة على أن قوم يونس آمنوا بعد كفرهم وانتفعوا بذلك بالإيمان .

الإيضاح

(فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها) أى فهلا كان أهل قرية من قرى أقوام أولئك الرسل آمنوا بعد دعوتهم وإقامة الحجة عليهم فنفعهم إيمانهم قبل وقوع العذاب الذى أنذروا به .

وخلاصة ذلك — إنه لم يؤمن قوم منهم بحيث لم يشذ منهم أحد .

(إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين) يونس عليه السلام بعث فى أهل نينوى بأرض الموصل وكانوا أهل كفر وشرك فدعاهم إلى الإيمان بالله وحده وترك ما يعبدون من الأصنام فأبوا عليه وكذبوه ، فأخبرهم أن العذاب مصبّهم بعد ثلاث ليال — فلما كانت الليلة الثالثة ذهب عنهم من جوف الليل ، فلما أصبحوا تغشاهم العذاب ، فلما أيقنوا بالهلاك طلبوا نبيهم فلم يجدوه فخرجوا إلى الصحراء بأنفسهم ونساءهم وصبيانهم ودوابهم ولبسوا اللسوح وأظهروا الإيمان والتوبة ونضروا إلى ربهم وأخلصوا النية فرحمهم واستجاب دعاءهم وكشف عنهم ما نزل بهم من العذاب .

والخلاصة — إن قوم يونس لما آمنوا قبل وقوع العذاب بهم بالفعل وكانوا علموا بقربه من خروج نبيهم — صرفنا عنهم عذاب النل والهوان فى الدنيا بعد ما أظلمهم وكاد ينزل بهم ، ومتعناهم بمتاعها إلى زمن معلوم وهو الوقت الذى يعيش فيه كل منهم على حسب سنن الله فى استعداد بنيته ومعيشته .

وفى ذلك تعريض بأهل مكة وإنذار لهم وحض على أن يكونوا كقوم يونس الذين استحقوا العذاب بعنادهم ، حتى إذا أنذرهم نبيهم بقرع وقوعه وخرج من بينهم اعتبروا وآمنوا قبل اليأس وقبل أن ينزل بهم البأس .

(ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا) أى ولو شاء ربك أن يؤمن أهل الأرض كلهم جميعا لآمنوا بأن يلجئهم إلى الإيمان قسرا ، أو يخلقهم مؤمنين طائعين كالملائكة ، لا استعداد فى فطرتهم لتغير الإيمان .
وجاء فى معنى الآية قوله « وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا » وقوله « وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً » .

وخلاصة ذلك — إنه لو شاء ربك ألا يخلق الإنسان مستعدا بفطرته للخير والشر والإيمان والكفر ، ومرجحا باختياره لأحد الأمور الممكنة على ما يقابله بإرادته ومشئته — لفعل ذلك ، ولكن اقتضت حكمته أن يخلقه هكذا يوازن باختياره بين الإيمان والكفر ، فيؤمن بعض ويكفر آخرون .

(أفأنت تكفر الناس حتى يكونوا مؤمنين) أى إن هذا ليس بمستطاع لك ولا من وظائف الرسالة التى بعثت بها أنت وسائر الرسل الكرام كما قال تعالى « إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ » وقال « وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ » وقال « لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ » .

(وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله) أى وما كان لنفس بمقتضى ما أعطاها الله من الاختيار والاستقلال فى الأفعال ، أن تؤمن إلا بإرادة الله ومقتضى سننه فى الترجيح بين المتقابلين ، فالنفس مختارة فى دائرة الأسباب والمسببات ، ولكنها غير مستقلة فى اختيارها استقلالاً تاماً — بل مقيدة بنظام السنن والأقدار الإلهية .

(ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون) أى وإذا كان كل شىء بإذنه وتيسيره ومشئته التى تجرى بقدره فهو يجعل الإذن وتيسير الإيمان للذين يعقلون آياته ويوازنون بين الأمور فيختارون خير الأعمال ويتقون شرها ويرجعون أنفعها على أضرها بإذنه تعالى وتيسيره ، ويجعل الخذلان والخزى المرجح للكفر والفجور على الذين لا يعقلون ولا يتدبرون ، إذ هم لخطأ رأيهم وسلوك سبيل الهوى يرجعون الكفر على الإيمان والفجور على التقوى .

قُلْ اَنْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُنْفِى الْآيَاتُ وَالنَّذْرُ
عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠١) فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ
قَبْلِهِمْ ، قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّى مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ (١٠٢) ثُمَّ نُنْجِى رُسُلَنَا
وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٣)

المعنى الجملى

بعد أن أبان سبحانه أن سننه فى نوع الإنسان ، أن خلقه مستعدا للإيمان
والكفر والخير والشر ، ولم يشأ أن يجعله على طريقة واحدة إما الكفر وحده
وإما الإيمان وحده ، وإنك أيها الرسول لا تقدر على جعله على غير ذلك - بين هنا
أن مدار سعادته على استعمال عقله فى التمييز بين الخير والشر ، وما على الرسول
إلا التبشير والإنذار وبيان الطريق المستقيم الذى يوصل إلى السعادة ، وما الدين
إلا مساعد للعقل على حسن الاختيار إذا أحسن النظر والتفكير اللذين أمر الله بهما.

الإيضاح

(قُلْ اَنْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) أى قل لهم أيها الرسول لمن تحرص
على هدايتهم من قومك : انظروا بأبصاركم وبصائركم ماذا فى السموات والأرض من
كواكب نيرات ، ثواب وسيارات ، وشمس وقر ، وليل ونهار ، وسحاب ومطر ، وهواء
وماء ، وليل ونهار ، وإيلاج أحدهما فى الآخر حتى يطول هذا ويقصر ذاك ، وما أنزل
الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ، وأخرج فيها من أفانين الثمار
والزروع والأزاهير وصنوف النبات ، وما ذرأ فيها من دواب مختلفة الأشكال
والألوان والمنافع وما فيها من جبال وسُهول وقفار وعمران ، وما فى البحر من عجائب
وهو مسخر مدلل للسالكين ، يحمل سفنهم ويجرى بها برفق بتسخير القدير العليم

الذى لا إله غيره ولا رب سواه « وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ . وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ » إنه يريدكم كل هذه الآيات ثم أتم تشركون .

(وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون) تغنى : تنفع وتفيد ، والنذر واحدها نذير ، أى إن الآيات الكونية على ظهور دلائلها والرسل على بلاغة حجتها لا تجدى نفعا لقوم لا يتوقع إيمانهم ، لأنهم لم يوجهوا أنظارهم إلى الاعتبار بالآيات والاستدلال بها على ما تدل عليه من وحدانية الله وقدرته . والاعتبار بسننه فى خلقه والاستفادة منها فيما يزكى النفس ويرفعها عن أرجاس الأمور .

(فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم) يقول الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم محذرا مشركى قومه من حلول عاجل نقمة ربهم بهم وقد حل بمن قبلهم من سائر الأمم الخالية التى سلكت فى تكذيب رسله وجحودهم مسلكهم : هل ينتظر هؤلاء المشركون المكذبون بما جئتهم به من عند الله تعالى إلا يوما يعاينون فيه من عذاب الله مثل أيام أسلافهم الذين كانوا على مثل ما هم عليه من الشرك والتكذيب .

والخلاصة - إنهم لا ينتظرون إلا مثل وقائعهم مع رسلهم مما بلغهم مبدؤه وغايته . (قل فانتظروا إني معكم من المنتظرين) أى قل لهم منذرا مهددا : انتظروا عقاب الله ونزول سخطه بكم ، إني من المنتظرين هلاككم بالعقوبة التى تحل بكم ، وإني على بينة بما وعد الله به وصدق وعده المرسلين ، وإن الذين يصرون على الجحود والعدا سيكونون من الهالكين .

(ثم تنجى رسلنا والذين آمنوا) أى إن سنتنا فى رسلنا مع أقوامهم الذين يباغونهم الدعوة وقيمون عليهم الحجة وينذرونهم سوء عاقبة التكذيب فيؤمن بعض ويصر آخرون على الكفر - أن نهلك المكذبين وتنجى رسلنا والذين آمنوا بهم .

(كذلك حقا علينا ننج المؤمنين) أى ومثل هذا الإنجاء تنجى المؤمنين منعك أيها الرسول ونهلك المصرين على تكذيبك وعدا حقا علينا لا نخلفه كما قال تعالى «سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا» .

قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٤) وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٥) وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ (١٠٦) وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ، وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٠٧)

المعنى الجملى

بعد أن ذكر الأدلة على صدقه فى رسالته وصحة الدين الذى جاء به وبسطها غاية البسط حتى لم يبق فيها مجال للشك - قفى على ذلك بالأمر بإظهار دينه ، وإظهار الفارق بينه وبين ما هم عليه من عبادة الأوثان والأصنام التى لا تنفع ولا تنفع ويبيان أن الذى بيده النفع والضر هو الله الذى خلقهم .

الإيضاح

(قل يا أيها الناس إن كنتم فى شك من ديني فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله ولكن أعبد الله الذى يتوفاكم وأمرت أن أكون من المؤمنين) أى قل لهم أيها

الرسول إن كنتم فى شك من دىنى الذى أَدْعُوكُمْ إِلَيْهِ وَلَمْ يَتَّبِعِينَ لَكُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ فَاسْمَعُوا
وصفه واعرضوه على عقولكم وانظروا فيه لتعلموا أَنَّهُ لَمْ يَدْخُلْ فِيهِ لِلشَّكِّ ، وَإِنِّى
لَا أَعْبُدُ الْحِجَارَةَ الَّتِى تَعْبُدُونَهَا مِنْ دُونِ إِلَهِكُمْ وَخَالِقِكُمْ ، بَلْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِى يَقْبِضُ
الْخَلْقَ فَيَمِيتُهُمْ إِذَا شَاءَ وَيَنْفَعُهُمْ وَيَضُرُّهُمْ إِذَا أَرَادَ ، وَمِثْلُ هَذَا هُوَ الْحَقِيقُ بِأَن يَعْْبُدَ
وَأَن يُخَافَ وَأَن يُتَّقَى دُونَ مَنْ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ .

وفى ذلك تعريض لطيف وإيماء إلى أَن مِثْلَ هَذَا الدِّينِ لَا يَشْكُ فِيهِ ،
وإِنَّمَا يَنْبَغِ أَن تَشْكُوا فِيمَا أَنتُمْ عَلَيْهِ مِنْ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ الَّتِى لَا تَعْقِلُ وَلَا تَضُرُّ
وَلَا تَنْفَعُ ، إِذْ عِبَادَةُ الْخَالِقِ لَا يَسْتَنْكَرُهَا ذُووُ الْفِطْرَةِ السَّالِمَةِ ، أَمَّا عِبَادَةُ الْأَصْنَامِ
فَيَسْتَنْكَرُهَا كُلُّ ذِى لَبٍّ وَعَقْلٍ سَلِيمٍ .

وقد أمرت أَن أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ وَعَدَهُمُ اللَّهُ بِالنَّجَاةِ مِنْ عَذَابِهِ ،
وَيَنْصَرُّهُمْ عَلَى أَعْدَائِهِمْ وَاسْتَخْلَافَهُمْ فِي الْأَرْضِ .

(وَأَن أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا) أَى وَأَمَرْتُ أَن أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَأَمَرْتُ
بَأَن أَقِمَّ وَجْهَى لِلدِّينِ الْقِيمِ الَّذِى لَا عَوْجَ فِيهِ حَالُ كَوْنِى حَنِيفًا أَى مَائِلًا عَنْ
غَيْرِهِ مِنَ الشَّرْكِ وَالْبَاطِلِ ، وَذَلِكَ بِالتَّوَجُّهِ إِلَى اللَّهِ وَحْدَهُ فِي الدَّعَاءِ وَغَيْرِهِ بِدُونِ
التَّفَاتِ إِلَى شَيْءٍ سِوَاهُ ، وَعَلَى نَحْوِ هَذِهِ الْآيَةِ جَاءَ قَوْلُهُ « إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهَى لِذِى
فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ » .

فَمَنْ تَوَجَّهَ قَلْبُهُ إِلَى غَيْرِهِ فِي عِبَادَةِ مِنَ الْعِبَادَاتِ وَلَا سِوَا مُخِّ الْعِبَادَةِ وَرُوحِهَا وَهُوَ
الدَّعَاءُ فَهُوَ عَابِدٌ لَهُ مُشْرِكٌ بِاللَّهِ ، ثُمَّ نَهَى اللَّهُ رَسُولَهُ عَنْ ضِدِّ ذَلِكَ فَقَالَ :

(وَلَا تَكُونُونَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) أَى وَلَا تَكُونُوا مِمَّنْ يَشْرِكُ فِي عِبَادَةِ رَبِّهِ الْأَلْهَةِ
وَالْأَنْدَادِ كَأَرْبَابِ الدِّيَانَاتِ الْوُثْنِيَّةِ الْبَاطِلَةِ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابًا مِنْ
الْوَسْطَاءِ وَالْأَوْلِيَاءِ وَالشُّفَعَاءِ يُوْجِّهُونَ قُلُوبَهُمْ إِلَيْهِمْ عِنْدَ الشَّدَةِ تَصْدِيقَهُمْ وَالْحَاجَةِ
تَسْتَعِصَى عَلَيْهِمْ لِيَقْضُوا لَهُمْ حَاجَتَهُمْ إِمَّا بِأَنْفُسِهِمْ أَوْ بِشَفَاعَتِهِمْ وَوَسَاطَتِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ،
فَإِن فَعَلْتَ ذَلِكَ كُنْتَ مِنَ الْهَالِكِينَ .

(ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك) أى ولا تدع أيها الرسول غيره تعالى دء عبادة لا على سبيل الاستقلال ولا على سبيل الاشتراك بوساطة الشفعاء - ما لا ينفعك فى الدنيا ولا فى الآخرة ، ولا يضرك إن تركت دعاءه ولا إن دعوت غيره .

(فإن فعلت فإنك إذا من الظالمين) أى فإن فعلت هذا ودعوت غيره كنت فى هذه الحال من الذين ظلموا أنفسهم ، ولا ظلم لها أكبر من الشرك بالله تعالى ، فدعاء الله وحده أعظم العبادات ، ودعاء غيره شرك وظلم للنفس لإضافة التصرف إلى ما لا يصدر منه ، فهو وضع للشئ فى غير موضعه ، وقد جاء فى معنى الآية آيات كثيرة متفرقة فى السور لا تنزع هذا الشرك من قلوب السواد الأعظم من الناس ، وقد انتزع من قلوب الذين أخذوا دينهم من كتاب ربهم ، وكانت عبادتهم له دعاء بالغدو والآصال والليل والنهار ، وفيها نعى على الذين هجروا تدبر القرآن وتلقوا عقائدهم من الآباء والأمهات والمعاشرين الأميين الجاهليين فتوجهوا إلى القبور فزينوها بالسرج والمصابيح ودعوا من دون الله وتقربوا إليها بالهدايا والنذور لتكشف عنهم الضر وتعطيهم ما يرجون من النفع ، ويتأولون هذه الآيات الكثيرة فيزعمون أنها خاصة بعبادة الأصنام والنذر للأوثان ، والتعظيم للصليبان ، كأن الشرك بالله جائز من بعض المخلوقين دون بعض .

ثم أكد سبحانه المعنى السالف ودحض شبهة الذين يدعون غير الله لأنهم طالما استفادوا من دعائهم والاستغاثة بهم فشفيت أمراضهم وكشف الضر عنهم فقال :

(وإن يمسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو) أى وإن يمسك الله أيها الإنسان بضر كمرض يصيبك بمخالفة سننه فى حفظ الصحة ، أو نقص فى الأموال والثمرات بأسباب لك فيها عبرة ، أو ظلم يقع عليك من غيرك ، فلا كاشف له إلا هو ، وقد جعل الله للأشياء أسبابا يعرفها خلقه بتجارهم ككشف الأمراض بمعرفة أسبابها

ومعرفة خواص العقاقير التى تداوى بها ، فعلينا أن نطلبها من الأسباب ونأتى البيوت من الأبواب وتتوجه إلى الله وحده وندعوه مخلصين له متوكلين عليه .

(وإن يردك بخير فلا رادّ لفضله يصيب به من يشاء من عباده) أى وإن يردك ربك برخاء ونعمة وعافية فلا يقدر أحد أن يحول بينك وبين فضله الذى تعلقت به إرادته تعالى ، فما شاء كان حتماً ، فلا يرجى خير ونفع إلا من فضله ، ولا يخاف ردّ ما يريده ، فهو يصيب بالخير من يشاء من عباده بكسب أو بغير كسب ، وبسبب ما قدره فى السنن العامة وبغير سبب ، فضله تعالى على عباده عام بعموم رحمته ، بخلاف الضر فإنّه لا يقع إلا بسبب من الأسباب الخاصة بكسب العبد أو العامة فى نظام الخلق كالأمراض التى تعرض بترك أسباب الصحة والوقاية جهلاً أو تقصيراً ، وفساد العمران وسقوط الدول الذى يقع بترك العدل وكثرة الظلم .

(وهو الغفور الرحيم) أى وهو الغفور لذنوب من تاب وأناب من عباده من كفره وشركه إلى الإيمان به وطاعته ، الرحيم بمن آمن به منهم فلا يعذبه بعد التوبة ولولا مغفرته الواسعة ورحمته العامة لأهلك الناس جميعاً بذنوبهم فى الدنيا قبل الآخرة كما قال تعالى : « وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهِا مِنْ دَابَّةٍ » وقال : « وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ » .

قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ . وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ، وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ (١٠٨) وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَأَصْبِرْ حَتَّىٰ يَخُذَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْخَاكِينَ (١٠٩)

المعنى الجملى

بعد أن قرر سبحانه دلائل التوحيد والنبوة والمعاد - ختم السورة بهذا البلاغ للناس كافة بمقتضى البعثة العامة ، وهو إجمال لما تقدم من التفصيل فيها .

الإيضاح

(قل يأيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم) أى قل لهم أيها الرسول مخاطبا جميع الناس من حضر منهم فسمع هذه الدعوة منك ومن سببقه عنك : قد جاءكم الحق المبين لحقيقة هذا الدين ، وقد أوحى به إلى رجل منكم ، وكان خفيا عنكم بما جهل من دعوة الرسل السابقين أو حرّف وبدل ، ففصله هذا الكتاب العربى المبين .

(فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه) أى فمن سلك سبيل الحق وصدق بما جاء من عند الله فى كتابه الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، كأنما فائدة ذلك عائدة إليه لأنه يفوز بالسعادة فى دنياه ودينه ، وذلك إنما يكون بعمله لا بعمل غيره ولا بتأثيره بشفاعته أو وساطته .

(ومن ضل فإنما يضل عليها) أى ومن اعوجّ عن الحق الذى أتاه من عند الله وأعرض عن كتابه وعن آياته فى الأنفس والآفاق ، فإنما وبال ضلاله على نفسه بما يفوته من فوائد الاهتداء فى الدنيا وما يصيبه من العذاب على كفره وجرائمه فى الآخرة .

(وما أنا عليكم بوكيل) أى وما أنا بموكل من عند الله بأمورك ولا بمسيطر عليكم فأكرهكم على الإيمان ، وأمنعكم بقوتى من الكفر والعصيان ولا أملك لكم ضرا ولا نفعا ، وما أنا إلا رسول مبلغ إليكم أمر ربكم ، بشير لمن اهتدى ونذير لمن ضل وغوى ، وقد أعذر من أنذر .

(واتبع ما يوحى إليك واصبر حتى يحكم الله) أى واتبع أيها الرسول وحى الله الذى أنزله إليك فى كتابه واعمل به وعلمه أمتك واصبر على ما يصيبك من الأذى

والمكارة ، وعلى ما ينالك من قومك حتى يقضى الله بينك وبين المكذبين لك وينجز لك ما وعدك .

(وهو خير الحاكمين) أى وهو خير القاضين وأعدل الفاصلين ، فهو لا يحكم إلا بالحق ، وغيره قد يحكم بالباطل إما جهله بالحق أو مخالفته له بانباع الهوى ، وقد امتثل رسوله أمر ربه وصبر حتى حكم الله بينه وبين قومه وأنجز وعده له صلى الله عليه وسلم ولمن اتبعه من المؤمنين ، فاستخلفهم فى الأرض وجعلهم الأئمة الوارثين ما أقاموا الدين . وغير خافٍ ما فى هذه الآيات من التسلية لنبيه ووعدته للمؤمنين ووعدته للكافرين .

سورة هود عليه السلام

وهى مكية كالتى قبلها ، وعدد آياتها ثلاث وعشرون ومائة ، نزلت بعد سورة يونس ، وتضمنت ما تضمنته تلك من أصول الإسلام ، وهى التوحيد والنبوة والبعث والحساب والجزاء .

وفصل فيها ما أجمل فى سابقها من قصص الرسل عليهم السلام وهى مناسبة لها فى فاتحتها وخاتمتها وتفصيل الدعوة فى أثنائها ، فقد افتتحتا بذكر القرآن بعد (الر) وذكر رسالة النبي المبلغ عن ربه ، وبيان أن وظيفة الرسول إنما هى التبشير والإنذار وفى أثنائهما ذكر التحدى بالقرآن والرد على الذين زعموا أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد افترأه ، وَحُجَّاجَةُ الْمُشْرِكِينَ فى أصول الدين ، وختمتا بخطاب الناس بالدعوة إلى ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ، ثم أمر الرسول صلى الله عليه وسلم فى الأولى بالصبر حتى يحكم الله بينه وبين الكافرين ، وفى الثانية بانتظار هذا الحكم منه تعالى مع الاستقامة على عبادته والتوكل عليه .

وعلى الجملة فقد أجمل فى كل منهما ما فصل فى الأخرى مع فوائد انفردت بها كل منهما ، فقد اتفقتا موضوعا فى الأكثر واختلفتا نظما وأسلوبا مما لا مجال للشك فى أنهما من كلام الرحمن ، الذى علم الإنسان البيان .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّ كِتَابٌ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (١)
أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ (٢) وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا
رَبَّكُمْ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ يُغْفِرْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ

كُلِّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ، وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ
كَبِيرٍ (٣) إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤)

شرح المفردات

(الر) تقدم أن قلنا إنها حرف تنبيه كالأ وتقرأ بأسمائها ساكنة فيقال : (أَلِفْ
لَامٌ ، رَا) وإحكام البناء كالتقصر والحصن : إتقانه حتى لا يقع فيه خلل ، وتفصيل
العقد بالفرائد : جعل خرزة أو مرجانة بلون بين كل خرزتين من لون آخر ، والمتاع :
كل ما ينتفع به فى المعيشة وحاجة البيوت ، والأجل المسمى : هو العمر المقدر .

المعنى الجملى

جاءت هذه الآيات فى أصول الدين وهى القرآن وما بين فيه من توحيد الله
وعبادته وحده والإيمان برسله والبعث والجزاء فى اليوم الآخر .

الإيضاح

(الر) كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير (أى هذا كتاب
عظيم الشأن جليل القدر ، جعلت آياته محكمة النظم والتأليف واضحة المعانى لا تقبل
شكا ولا تاويلا ولا تبديلا كأنها الحصن المنيع الذى لا يتطرق إليه خلل - وجعلت
فصولا متفرقة فى سورة تبين حقائق العقائد والأحكام والمواعظ وجميع ما أنزل له
الكتاب من الحكم والفوائد فكأنها العقد المفصل بالفرائد ، ولا عجب فقد أنزلت
من لدن حكيم يقدر حاجة عباده ويعطيهم ما فيه الخير لهم ، خبير بعواقب ذاك
ومصادره وموارده .

(ألا تعبدوا إلا الله إننى لكم نذير وبشير) أى أحكمت وفصلت بالأ تعبدوا
إلا الله ، أى نزل هذا القرآن المحكم المفصل لعبادة الله وحده لا شريك له ،

وهذا كقوله : « وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ » وقوله : « وَأَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ » وقل للناس إني من عند الله نذير ينذركم عقابه ، ويبشركم ثوابه لى طاعته والإخلاص له .

وهذا بيان لوظيفة الرسالة ، ومبين لدعوة الرسول صلى الله عليه وسلم .

(وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعا حسنا إلى أجل مسمى) أى واسألوه أن يغفر لكم ما كان منكم من أعمال الشرك والكفر والإجرام . ثم ارجعوا إليه بإخلاص العبادة له دون سواه مما تعبدون من دونه من الأصنام والأوثان فإن فعلتم ذلك واستغفرتهم من كل ذنب وتبتم من الإعراض عن هدايته . وتكسب سننه يمتعكم فى دنياكم متاعا حسنا فيرزقكم من زينة الدنيا وينسأ لكم فى آجالكم إلى الوقت الذى قضى عليكم فيه الموت وهو العمر المقدر لكم فى علمه المكتوب فى نظام الخليقة وسنن الاجتماع البشرى فى عبادته ، ولا يقطعه بعذاب الاستئصال ولا يفسد العمران ولا ينقصه ما ينقص من أدمن على الشرك والمعاصى .

ذاك أن الله ماحرم إلا الأشياء الضارة بالعقل أو بالصحة أو بنظام الاجتماع المالى أو البدنى ، وإنما يكمل ضررها بإصرار فاعليها عليها ، فإذا أقلعوا عنها وندموا على ما فعلوا وبادروا إلى التوبة من قريب ، امتنع ذلك الفساد .

وهذه سنة مطردة فى ذنوب الأمم ، وهى فيها أظهر من ذنوب الأفراد ، فالشاهد أن الأمم التى تصر على الظلم والفسوق والعصيان يهلكها الله تعالى فى الدنيا بالضعف والشقاق وخراب العمران حتى تزول منعتها وتمزق وحدتها .

(ويؤت كل ذى فضل فضله) أى وإن تجتنبوا الشرك وتؤمنوا بالله وتستغفروه يمتعكم متاعا حسنا تكونون به خير الأمم نعمة وقوة وعزة ويعط كل ذى فضل من علم وعمل جزاء فضله ، أما فى الآخرة فهو مطرد دائما ، وأما فى الدنيا فقد يكون ناقصا مشوبا بأكدار ولا يكون مطردا لقصر أعمار الأفراد .

(وإن تولوا فإني أخاف عليكم عذاب يوم كبير) أى وإن توليتم وأعرضتم عما دعوتكم إليه من عبادة الله وحده وعدم عبادة غيره فإني أخاف عليكم عذاب يوم كبير الهول شديد البأس ، فيصيبكم مثل ما أصاب أقوام الرسل الذين عاندوهم وأصرروا على تكذيبهم وعصيانهم ، أو قريب منه بعد نصر الرسول والمؤمنين .

(إلى الله مرجعكم وهو على كل شيء قدير) أى إليه تعالى رجوعكم بعد موتكم جميعاً أئماً وأفراداً لا يتخفف منكم أحد ، وحينئذ تلقون جزاءكم بالعدل والقسطاس ، وهو سبحانه قدير على كل شيء .

أَلَا إِنَّهُمْ يَشْنُونَ صُدُورَهُمْ لَيَسْتَخَفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ
ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ، إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٥)

شرح المفردات

ثنى الشيء : عطف بعضه على بعض فطواه ، وإثناء الثوب : إطواؤه ، وثناه عنه : لواه وحوله ، وثناه عليه : أطبقه وطواه ليخفيه فيه ، وثنى عنائه عنى : تحول وأعرض والاستخفاء : محاولة الخفاء ، واستغشى الثوب تغطى به كما قال حكاية عن نوح عليه السلام : « وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرًا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا » .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أنهم إن أعرضوا حاق بهم عذاب يوم كبير - بين في هذه الآية حالهم وصفاتهم العجيبة الدالة على إعراض الخيرة والعجز ومنتهى الجبل .

الايضاح

(ألا إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه) أى إن هؤلاء الكافرين الكارهين لدعوة التوحيد يحنون ظهورهم وينكسون رؤوسهم كأنهم يحاولون طيّ صدورهم على بطونهم حين سماع القرآن ليستخفوا منه صلى الله عليه وسلم حين تلاوته فلا يراهم حين نزول هذه القوارع على رؤوسهم ، روى ابن جرير وغيره أن ابن شداد قال : كان أحدهم إذا مر بالنبي صلى الله عليه وسلم ثنى صدره كيلا يراه أحد .

(ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم مايسرون وما يعلنون) أى إن ثنى صدورهم وتنكيس رؤوسهم ليستخفوا من الداعى لهم إلى توحيد ربهم لا يغنى عنهم شيئا ، فإن ربهم يعلم مايسرون ليلاً حين يستغشون ثيابهم فيغطون بها جميع أبدانهم ، ثم ما يعلنون نهاراً .

(إنه عليم بذات الصدور) أى إنه تعالى عليم بأسرار الصدور وخواطر القلوب فاحذروا أن يطلع عليكم ربكم وأنتم مضمرون فى صدوركم الشك فى شيء من توحيده أو أمره أو نهييه .

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين .

تمت مسودة هذا الجزء فى السادس والعشرين من ذى الحجة سنة اثنتين وستين .
وثلاثمائة وألف هجرية بمدينة حلوان من أرباض القاهرة قاعدة الديار المصرية .

فهرست

أهم المباحث العامة التى فى هذا الجزء

الصفحة	المبحث
٨	من أتى أبواب السلطان افتتن .
	من الأعراب من كان يظن أن الصدقات مغارم ، ومنهم من كان يظن أنها قربات عند الله .
١١	المسلمون ثلاث طبقات .
١٢	من أهل المدينة ناس مردوا على النفاق .
١٣	المنافقون فريقان .
١٦	خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها .
١٧	كان الرسول يدعو للمتصدقين ويستغفر لهم .
١٨	قوائد الصدقات فى إصلاح المجتمع الإسلامى .
١٨	فرضت الزكاة فى أول الإسلام مطلقة .
٢٠	ما أصر من استغفر وإن عاد فى اليوم سبعين مرة .
٢١	كان المتخلفون عن الجهاد فى غزوة تبوك أقساما ثلاثة .
٢٥	الأغراض التى لأجلها بنى مسجد الضرار .
٢٧	حب الله للمتطهرين .
٣١	بيعة العقبة .
٣٣	المؤمنون الكلمة .
٣٧	النبوة والإيمان الصادق لا يبيحان الاستغفار للمشركين فى حال .
٤٠	غزوة العسرة .
٤٣	لا يرخص فى الكذب إلا فى ثلاث .

الصفحة	المبحث
٤٤	فى المعارىض ماىغنى عن الكذب .
٤٨	وجوب التفقه فى الدين والاستعداد لتعليمه .
٥٤	الأب الرحيم ربما لجأ إلى ضرور من التأديب يشق على النفس احتماها .
٦٠	ليس الغنى سببا للزنى والقرب من الله .
٦١	ليس القرآن بسحر .
٦٣	العرش مركز تدبير هذا الملك العظيم .
٦٤	لا ينبغي أن نوجه وجوهنا شطر قبور الأولياء والصالحين .
٦٥	الإعادة أهون من البدء .
٦٧	منازل القمر وسيلة لمعرفة عدد السنين والحساب .
٧١	تحية أهل الجنة .
٧٢	لا يكون المؤمن أهلا للجنة إلا بالعمل ومجاهدة النفس والهوى .
٧٤	لو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا مترك على ظهرها من دابة .
٧٥	الإنسان عند الشدة يدعو ربه وعند الرخاء ينساه .
٧٦	هلاك الله للأمم ضربان .
٨٠	شر الظلم افتراء الكذب على الله والتكذيب بآياته .
٨٢	الشرك ضربان شرك فى الربوبية وشرك فى الألوهية .
٨٣	شئون الرب وسائر ما فى عالم الغيب لاتعلم إلا بوحي .
٨٥	معجزة النبي صلى الله عليه وسلم هى كتابه المعجز .
٨٨	دعا رسول الله على المشركين فقال : اللهم أنزل عليهم سنين كسنى يوسف .
٩٠	الناس الآن أشد من المشركين إشرا كما فإذا نزلت بهم ضائقة دعوا الأموات وقد كان المشركون يدعون الله فى مثل هذا .
٩١	ثلاث هن رواجع على أهلها المكر . والنكث . والبغى .
٩٣	مثل الحياة الدنيا فى القرآن ..

الصفحة	المبحث
٩٤	صفات الحسن والمسيء يوم القيامة .
٩٥	وعد الله المحسن بالحسن وزيادة وأوعد الذين كسبوا السيئات بسينة مثلها .
٩٨	لاشفيع ولا ناصر يوم القيامة .
١٠٠	علامة الحياة فى النبات والحيوان .
١٠٢	الأدلة على بطلان الشرك .
١٠٥	أصول الإيمان تبنى على اليقين دون الظن .
١٠٦	ما فى القرآن ليس فى طوق البشر أن يأتى بمثله .
١٠٧	تحذيرهم أن يأتوا بسورة مثله .
١٠٨	إسراهم فى تكذيبهم قبل أن يتدبروا معناه .
١١٠	النبي ليس بمسيطر ولا جبار .
١١١	المسلمون الآن يسمعون القرآن لترتيبه لالتدبر معانيه .
١١٢	هداية الله لا تكون إلا المستعد لها .
١١٣	الدنيا كساعة من نهار
١١٥	ما ترك الله أمة بلا رسول .
١١٦	المشركون كانوا يستعجلون العذاب .
١١٧	عجا لقوم يطلبون الحاجات ممن دفنوا تحت أطباق الثرى .
١١٩	حديث ضمام بن ثعلبة مع النبي صلى الله عليه وسلم .
١٢٠	يتقى الظالم أن يكون له فداء فى ذلك اليوم .
١٢٢	القرآن عظة وشفاء وهدى ورحمة .
١٢٤	التحليل والتحریم لله وحده .
١٢٥	جزاء المقرين على الله الكذب يوم القيامة .
١٢٧	الله رقيب وشهيد على أعمال المرء فى هذه الحياة .

الصفحة	المبحث
١٢٨	لا يغيب عن ربنا مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء .
١٢٩	أولياء الله .
١٣٠	للاشيطان لمة وللملك لمة .
١٣٠	الذين يتوسلون بهم يتوسلون إلى ربهم راجين خائفين .
١٣٠	قال المشركون الملائكة بنات الله وقالت اليهود عزيز ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله .
١٣٥	العقائد الدينية لا بد فيها من دليل قاطع والتقليد فيها غير سائغ .
١٣٧	مقالة نوح لقومه .
١٤١	حين جاء موسى بالآيات البينات قال فرعون وقومه إن هذا إله سحر مبين .
١٤١	الساحر لا يفوز بمطلوب .
١٤٢	قالوا لموسى ما غرضك من هذه الدعوة إلا امتلاك البلاد .
١٤٣	مقالة موسى للسحرة .
١٤٥	الدعاء لا يستجاب إلا مع اتخاذ الأسباب .
١٤٦	كان المصريون يستعملون بنى إسرائيل فى المهن الحقةرة .
١٤٨	دعوة موسى على المصريين فى ذلك الحين .
١٥١	غرق فرعون فى بحر القلزم .
١٥٣	عاقبة بنى إسرائيل بعد خروجهم من مصر .
١٥٧	قوم يونس لما آمنوا .
١٥٨	لو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا .
١٦٠	لا تغنى الآيات والنذر لمن لا يفكر فيها .
١٦٢	الإله الذى ينبغى أن يعبد .
١٦٣	لا يكشف الضر إلا رب العالمين .
١٦٥	الرسول ليس بمسيطر ولا جبار .